المحبة موضوعها وغاياتها

عند ابن تيمية

لقد تعددت الآيات والأحاديث النبوية التي تتناول محبة الله تعالي ورسوله ﷺ وتجلت هذه المحبة واضحة لا مرية فيها فقد نطقت الآيات بمحبة المؤمنين لله تعالي كما في قوله تعالي " وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ " [1] وقوله تعالي " يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ "[2] وقوله تعالي " وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ "[3] وقوله تعالي " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ "[4] وغيرها من الآيات الدالة علي محبة الرب ، " وكذلك الحض علي الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات " [5] وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع إلي الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار "[6] ومحبة المؤمنين لرسوله ﷺ إنما وجبت لمحبة الله ، كما ورد في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتي أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) [7] " وغيره من الأحاديث التي تحض علي

---

[1] سورة البقرة (١٦٥)

[2] سورة المائدة (٥٤)

[3] سورة البقرة (١٩٥)

[4] سورة آل عمران (٣١)

[5] ابن تيمية : التحفة العراقية ، صـ ٤٩ ، ط١ ، ١٩٨٧م تحقيق / جمال سلامة ـ إشراف د/ محمد عويضه ، مكتبة المنار ، الأردن .

[6] البخاري في الإيمان (١٦) ومسلم في الإيمان (٤٣/ ٦٧) وكلاهما عن انس وصحيح ابن حبان وسنن الترمذي والنسائي .

[7] البخاري في الإيمان (١٤ ، ١٥) ومسلم في الإيمان (٤٤ ، ٦٩ ، ٧٠) .

محبة صحابته وقرابته "[1] وأما محبة الله لعبده فقد قال تعالي : " وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً " [2] والمحبة عند ابن تيمية كما هي عند سائر السلف الصالح هي " نقطة البداية التي يقترن فيها النظر بالعمل " [3] وهي تعني الاقتداء فهي ليست نزوعاً نحو الجمال فحسب ولكنها طلب التقرب من المحبوب بتنفيذ أوامره .

الفرق بين المحبة والخلة

أما الخلة :

" فهي كمال المحبة المستغرقة للحب " [4] فهي بهذا أخص من مطلق المحبة وهي من كمالها وتخللها للمحب بحيث يكون المحبوب بها محبوباً لذاته ، لا لشيء آخر

وأما المحبة :

فيري ابن تيمية " أنها هي أصل كل عمل ديني " [5] وهي " الطاعة لله فيما أمر والانتهاء عما زجر والرضا بما حكم وقدر ، وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل الحديث وجميع مشايخ الدين وأئمة التصوف أن الله محبوب لذاته محبة حقيقية ، بل هي أكمل محبة " [6] وقد كان المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ) يراها هي سيف نور القلب

---

(١) ابن تيمية ـ التحفة العراقية ، صـ ٤٨ ، تحقيق / جمال سلامة ، إشراف د/ محمد عويضه ـ مكتبة المنار الأردن .

(٢) سورة النساء (١٢٥)

(٣) د/ مصطفي حلمي (أعمال القلوب) بين الصوفية وعلماء أهل السنة ، صـ ١٢٦ ، دار الدعوة الإسكندرية ١٩٩٣م .

(٤) ابن تيمية (التحفة العراقية) صـ ٥٠ .

(٥) المرجع السابق ، صـ ٤٥ .

(٦) المرجع السابق ، صـ ٧٣ .

ويتجلى هذا في تعريفه للحب الإلهي بقوله " الحب الإلهي في نفس المحب استثارة القلب بالفرح بقربه من حبيبه "[1] وقد دفع هذا بعض الصوفية إلي جعل المحبة أعلي المقامات للعارفين وهي عنده سبب أساسي لغفران الذنوب وتحصيل السعادة في الدار الآخرة . وقد استدل علي ذلك بقول الله تعالي عقب آية المحبة " وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ" [2] لذا كان الحب هو " أصل الإسلام وجوهره وروح التصوف ومنبعه ، والحب في الإسلام قطب رحاه ومشرق أنواره " [3] وقد روي عن ابن سارية قال : كان رسول الله ﷺ يدعو بقوله : اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي " [4] وكأن الرسول ﷺ طلب خالص الحب وخالص الحب هو أن يحب الله تعالي بكليته .

وهذا قد جعل علماء السلف يرون ضرورة " تزكية النفس وتهذيبها لتستعد لسيرها إلي صحبة الرفيق الأعلى ومعه من تحبه ، فإن المرء مع من أحب "[5] وبهذا فقد جعلوا المحبة هي غاية الغايات لأنه إذا كانت غاية المتقرب إلي ربه هي الوصول إلي القرب منه والأنس به فإن المحبة الخالصة المستديمة بالطاعة هي الموصلة إلي القرب من الحبيب ويظهر لنا من هذا أن السلف قد جعلوا الغاية من سلوك الطريق التعبدي هو " الوصول إلي مقام المحبة " [6] وقد اعتنوا في طريق الله بالمضمون من المعارف

---

(1) اليافعي (عبد الله بن أسد) : نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية وأصحاب المقامات العالية ، صـ ١٨٧ تحقيق / إبراهيم عطوة ، ط١ ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨١هـ ، ١٩٦١م .

(2) سورة آل عمران (٣١)

(3) د/ عبد الرحمن عميرة (التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً) صـ ٩١ ؛ مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٨٢م .

(4) رواه النسائي وأبو يعلي الموصلي وابن منيع .

(5) ابن القيم ، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، صـ ١٥٠ .

(6) د/ مصطفي حلمي (أعمال القلوب) صـ ٩٦ .

والعبادات دون الشكل فتقربوا إلي الله تعالي بالمأمورات والبعد عن المنهيات ليحوزوا الشرف من الإيمان والتقوى والله تعالي قد جعل " وصف أوليائه الإيمان والتقوى فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل " [1] وقد كان ابن تيمية يري أن المحبة كمثل الإيمان تزيد وتقوي كما أنه يزيد وينقص وهذا بسبب المتابعة وإذا كانت أيضاً هي أصل كل عمل ديني فنراه تبعاً لذلك يبين درجات المحبة :

" درجات محبة الله ورسوله درجتان "

١- **واجبة** : وهي التي تقتضي محبة جميع ما أوجبه الله تعالي وهي درجة المقتصدين ، التي توجب أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، (فإن المحبة الواجبة تقتضي فعل الواجبات) [2]

٢- **مستحبة** : وهي درجة السابقين ، فإنهم أحبوا ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة ، وهؤلاء هم الذين قربهم الله إليه حيث إن (كمال المحبة المستحبة تستلزم بكمالها فعل المستحبات) [3] ويقسم ابن تيمية أيضاً المحبة إلي درجات تكاد تكون هذه الدرجات معروفة لدي علماء السلف ومشايخ الصوفية علي زيادة أو نقص أو إدماج ولكنه يرى أن " أعلاه التتيم ، وهو التعبد ، وتيم الله : عبد الله "[4] وبذلك فقد قسم وصنف الناس في المحبة إلي أصناف أو أقسام أربعة في المحبة .

---

[1] ابن القيم (مدارج السالكين) ج٢ ، صـ ٣١٨ . دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ دار إحياء الكتب العربية ـ فيصل عيسى البالي الحلبي .

[2] ابن تيمية ، قاعدة في المحبة ، صـ ١٦٣ .مخطوطة / مصورة بمعهد المخطوطات العربية ، رقم ٢٣٠ تصوف .

[3] المرجع السابق ص ١٦٣.

[4] ابن تيمية (التحفة العراقية) صـ ١٤٥ .

١- قوم تتولد محبتهم من (إحسان الله إليهم وعطفه عليهم) [١] وهؤلاء لهم قدرة ولهم إرادة ومحبة غير مأمور بها لذا فهم يجاهدون في الدنيا في سبيل آخر غير سبيل الله ، وهذه محبة دنيوية مادية لهم يربطها أصحابها بطاعة الله تعالي وعبادته وهي محبة العامة .

٢- قوم لهم إرادة صالحة ومحبة صالحة كاملة ولهم قدرة كاملة فهم سادة المحبين والمحبوبين المجاهدين في سبيل الله كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومحبة هؤلاء واجبة فهي (من أوثق عرى الإيمان وأعظم حسنات المتقين) [٢] والمحبة الخالصة في هؤلاء وأمثالهم هي التي تدفع إلي فعل الواجبات والمستحبات .

٣- القسم الثالث : قوم فيهم إرادة صالحة ومحبة لله قوية تامة لكن قدرتهم ناقصة فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم وذلك لأن استطاعتهم في الطاعة أقل من سابقيهم ، وقد قال الرسول ﷺ في مثل هؤلاء : (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا سلكتم وادياً إلا كانوا معكم فيه) قالوا : يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال (وهم بالمدينة ، حبسهم العذر) [٣] .

٤- القسم الرابع : من كانت قدرتهم ناقصة ، وإرادتهم للحق قاصرة ، وفيهم من إرادة الباطل ما الله به عليم ، فهؤلاء ضعفاء المؤمنين [٤]

---

[١] السراج الطوسي (اللمع) صـ ٨٦ .
[٢] ابن تيمية ـ مجموعة الفتاوي الكبري ، ج١٨ ، صـ ٣١٥ ، دار الكتب الحديثة .
[٣] البخاري في الجهاد (٢٨٣٩) ومسلم في الإمارة (١٩١١/ ١٥٩) وابن ماجة في الجهاد (٢٧٦٤ ، ٢٧٦٥) .
[٤] ابن تيمية ـ قاعدة في المحبة ، صـ ١٦٩ .

وقد نظر ابن تيمية إلي محبة المريدين [1] للشيوخ [2] ومتابعتهم لهم فيرى أن محبة " الشيوخ المخالفين للشريعة تؤدي إلي الهلاك ، وأما محبة أولياء الله المتقين ، مثل الخلفاء الراشدين وغيرهم من السلف الصالحين فإن (محبتهم من أوثق عري الإيمان وأعظم حسنات المتقين) [3]

وكما قلنا فإن ابن تيمية مثله مثل علماء السلف السابقين عليه والتابعين له ليست المحبة عندهم " من نوع العاطفة المتأججة التي تجعل من صاحبها هائماً علي وجهه ، تاركاً الفروض والتكاليف مقبلاً علي النواهي مردداً للأذكار ، مهللاً بالتسابيح يتواجد أينما حل ، وإنما المحبة الحقيقية هي فيصل التفرقة بين المؤمن الجاد في إيمانـــه الذي يحب ما يحب الله ويتجنب ما يكرهه " [4]

---

[1] المريد / هو سالك الطريق الذي يسير في الطريقة حسب إرشادات شيخه فيسلك طريقه كما يرسمه له شيخه حتي يصل إلي غايته ، ويبدأ طريقه بالتوبة إلي الله تعالي ــ ثم ــ أخذ العهد من الشيخ بطاعة الله ورسوله والسير في طريقه ثم تلقين الذكر دوماً في مراحله ــ من الشيخ ــ وأهم ما ينبغي عليه بعد حسن اختياره لشيخه هو الطاعة لأوامر الشيخ .

انظر ــ للزيادة (د/ عامر النجار) الطرق الصوفية ، صـــ ٢٦ .

[2] الشيخ : هو بمثابة الأستاذ للمريد (ولابد لمن يسلك الطريق الصوفي الصعب من مرشد أو هاد يأخذ بيده . وهو الشيخ) انظر ــ د/ سعيد عاشور (السيد أحمد البدوي شيخ وطريقة) سلسلة أعلام العرب ــ طبعة دار الكتاب العربي ــ وزارة الثقافة ، ط٢ ، ١٩٦٧م ، صـــ ١٨٣ . ودور الشيخ (أن يفتح للناس بإذن الله أبواباً ومنافذ يشرفون منها علي أضواء الحقيقة) انظر (السيد محمود أبو الفيضي المنوفي) المدخل إلي التصوف الإسلامي ، العدد ٧١ ، من سلسلة ــ مذاهب وشخصيات ــ صـــ ٦١ ــ طبعة الدار القومية للطباعة والنشر .

(وتلقين الشيخ للمريد يلقح باطن المريد ويسري فيه كأنما يلقح من سراج ، فعلي المريد ــ اختيار الشيخ الصالح المشهود له بالعلم والمعارف وإتقاء المحارم) انظر (شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السهروردي) عوارف المعارف طبعة مصر ١٩٣٩ ، صـــ ٧٠ .

وانظر كذلك للزيادة (د/ عامر النجار) الطرق الصوفية نشأتها ونظمها ورواداها ــ دار المعارف ، ط٥ ، ١٩٩٢ ، صـــ ٢٤ .

[3] ابن تيمية ــ مجموع الفتاوي ، ج١٨ ، صـــ ٣١٥ .

[4] د/ مصطفي حلمي (أعمال القلوب) ، صـــ ١٥٧ .

وهكذا فإننا نرى أن دائرة المحبة قد اتسعت عند ابن تيمية لكي تشمل جميع المؤمنين ولهذا فقد انتقد التعصب (للشيوخ بأعيانهم دون غيرهم) [١] . ولكي تكون المحبة خالصة بمعناها المثالي ، فينبغي أن تكون خالصة لوجه الله تعالي لا لهدف أو لمنفعة أو غير ذلك ، وقد جاء في جامع العلوم والحكم أن (المحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات) [٢] وبهذا يجب أن تكون خالصة لله تعالي وبغير ذلك (تصبح محبة الأشخاص تبعاً للهوي بغرض تحقيق مآرب خاصة أو ما شابه ذلك) [٣] قال تعالي " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ "[٤] ومن هنا فإن المحبة التامة لرسوله ﷺ شرطها المتابعة التامة وذلك بنص الآية وإذا كانت عبادة الله تجمع (كمال المحبة له ، وكمال الذل له) [٥] فإن هذا الذل الذي هو الخضوع لله وحده والاستسلام له وحده سوف يمنح القلب الحرية في مواجهة غير الله لأنه سوف يحرره من تشتت العبودية لغير الله فيصبح الهم واحد لأنه متجه بكليته إلي الواحد الحق ــ سبحانه وتعالي ــ " فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد له حباً وحرية عما سواه) [٦] ولذا يفهم العارفون الخبر الذي أخبر به الله تعالي عن المحب الحقيقي الذي استهلك نفسه في العبودية حتي ضرب به المثل فأخبر عنه سيده في غير ما موضع فقال " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً" [٧]وقال : "

---

[١] ابن تيمية ــ مجموع الفتاوي ج١٨ ، صـ ٣٢٠ .

[٢] ابن رجب (ت ٧٩٥هـ) جامع العلوم والحكم صـ ٢٨٢ ، مكتبة دار التراث ــ القاهرة ــ ١٩٨٩م .

[٣] د/ مصطفي حلمي / ابن تيمية والتصوف صـ ٣٤١ ، دار الدعوة ، ط٢ ، ١٩٨٢م .

[٤] سورة آل عمران (٣١)

[٥] ابن تيمية : الفتاوي ج ١٨ ، صـ ٣٢٠ ، قاعدة في المحبة ، صـ ١٩٦ .

[٦] السلوك من مجموع الفتاوي ج ١٠ ، صـ ١٩٣ .

[٧] سورة الإسراء (١)

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ "[1] حتي اتسعت الدائرة فشملت الإخبار عن كل من ذاق حلاوة العبودية فأعلي سيدهم ذكرهم فقال " وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً " [2]

" صلة الحب بالإرادة الإنسانية ، ودوره في السلوك الأخلاقي "

إن الإنسان بطبيعته يسعى لما فيه نفعه ولا صلاح له إلا بإقامة ما خلق من أجله قال تعالي " وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون "[3] فصلاح أمرنا ومقصدنا متمثل في عبادة ربنا عز وجل ، وحركتنا إلي هذا الصلاح ناتجة عن كثرة الهم وهو أول الإرادة " ومن المعلوم أن كل حي له إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ولا صلاح للموجودات إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالي كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله ، وإن صلاح الحي إنما هو صلاح مقصوده وإرادته ، وصلاح الأعمال والحركات بصلاح إرادتها ونياتها والنية موجودة لكل متحرك كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح[4](أصدق الأسماء الحارث وهمام)[5] فالحارث هو العامل الكاسب والهمام هو القاصد المريد ، وكل إنسان متحرك

---

(1) سورة الجن (١٩)

(2) سورة الفرقان (٦٣)

(3) سورة الذاريات (٥٦)

(4) جاء الحديث مطولاً عن أبي وهب الجشمي رضي الله عنه في سنن أبي داود ٤/ ٣٩٤ كتاب الأدب ــ باب في تغيير الأسماء ــ ونصه فيه (تسموا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء إلي الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرّه) والحديث عنه أيضاً في المسند ٤/ ٣٤٥ ــ وجاء حديث آخر نصه : (أحب الأسماء إلي الله عبد الله وعبد الرحمن) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في سَنن أبي داود في الموضع السابق وهو في مسلم وسنن الترمذي وابن ماجة والنسائي والدارمي .

(5) سنن أبي داود (٤/ ٣٩٤) ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والدرامي .

بإرادته حارث وهمام [1] " والحركات تنقسم إلي ثلاثة أقسام : طبيعية ، وقسرية ــ ، وإرادية : فالقسرية هي ما كانت من المتحرك دون شعور منه ، والإرادية هي المقترنة بالشعور التي تكون باختيار العبد "[2] والإرادية هي المسيطرة علي سائر الحركات لذا فإن الطبيعية نجدها تابعة للقسرية فلا تعرف الأخيرة إلا بخروج المطبوع عن مركزه مثل صعود الحجر إلي أعلي فطبيعته السقوط إلي أسفل ، أي أن الطبيعة مستلزمة للقسرية والقسرية مستلزمة للإرادية " فمبدأ الحركات كلها هي الإرادية "[3] لذا فابن تيمية يجعل تحرك الإنسان إلي صلاحه تحركاً ذاتياً لا دخل لأحد فيه فهو حر الإرادة ، إن شاء سعي للصلاة وإن شاء ركن . قال تعالي " فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ "[4] لذا فإن ترك الشيء أو فعله ناشيء من حب المرء له أو بغضه ، فإن لم يكن البغض لنفسه فللوازمه ، والإنسان لا يترك المحبوب إلا لمحبوب أقوي منه ، فالبغض ناتج عن الحب [بخلاف الحب فإنه قد يكون لنفسه لا لأجل منافاة للبغيض] [5] ومن ثم يتبين لنا أن الحب أصل الحركات ، ليست الإيمانية فقط ، بل إن كل حركة في الوجود هي عبارة متضمنة حب الحق تبارك وتعالي وإرادته وقصده " فالحب أصل حركة الإنسان والسموات والأرض ومن فيهن "[6]

وتتضح نظرية الحب عند ابن تيمية عندما يستعرض المحبة لله تعالي لذاته ــ فهو يشرح الحب الإنساني ــ بين البشر ــ ويرى أنه لا بد فيه من أن تتوافر القوة الإرادية التي يدفع بها المرء عن نفسه جاذبية الغير من الناس

---

(1) ابن تيمية : قاعدة في المحبة صـ ٢٠٠- ٢٠١ .

(2) ابن تيمية ــ العقل والنقل ٩/ ٣٧٣ ــ ٣٧٥ ، قاعدة في المحبة صـ ١٩٥ .

(3) السابق ــ قاعدة المحبة ، صـ ١٩٥ .

(4) سورة الكهف (٢٩)

(5) ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة ، صـ١٩٤ .

(6) السابق صـ١٩٤

، ويضرب علي ذلك مثالاً بحب امرأة العزيز ليوسف عليه السلام ، فإن يوسف كان لديه من ذخيرة المحبة لله والإخلاص له والخشية منه ، ما مكنه من مغالبة جمال المرأة وحبه لها ، فالمحبة إذن بين البشر أصلها تحقيق الأغراض أو السعي في الأذي بواسطة الخصوم ، فمحبة الأصدقاء للمرء تعود إلي محبة المنافع التي تتحقق لهم منه حتي يصبح كالعبد لهم (ومن أحب أحداً لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه) [1]

" علة المحبة "

يري ابن تيمية أنه لما كانت " كل حركة وعمل في العالم فأصلها المحبة والإرادة وكل محبة وإرادة لا يكون أصلها محبة الله وإرادة وجهه فهي باطلة فاسدة كان كل عمل لا يراد به وجهه باطلاً . لذا فإنه يفرق بين علتين في الحركة والإرادة الأولي هي الفاعلية والثانية الغائية . فهو يري أنه (لا يصلح أن يكون شيء من المخلوقات علّه فاعلية ولا غائية ، إذ لا يستقل مخلوق بأن يكون علة تامة قط ، ولهذا لم يصدر عن مخلوق واحد شيء قط ولا يصدر شيء في الآثار إلا عن اثنين من المخلوقات ، وكذلك لا يصلح شيء من المخلوقات أن يكون علة غائية تامة ، إذ ليس شيء من المخلوقات كمال مقصود حتي من الأحياء فالمخلوقات بأسرها يجتمع فيها هذان النقصان : أحدهما : أنه لا يصلح شيء فيها أن تكون علة تامة ، لا فاعليه ولا غائية ، والثاني : أن ما كان فيها علة فله علة سواء كان علة فاعلية أو غائية) [2] وبهذا فإن كل الحركات النابعة من إرادات مفتقرة إلي العلة الغائية التي هي في الحقيقة (المحبة) التي بها تتحرك العلة الفاعلية وإنما هو افتقار لذاتها لا لغيرها أي أن جنس الحركات كلها مستلزم لمراد بذاته (وهو المعبود الذي

---

(1) ابن تيمية ــ السلوك ١٠/٦٠٥ من الفتاوي الكبرى .

(2) ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة ــ صـ ٢١٠ .

يستحق العبادة لذاته) [1] وكل الأشياء تفتقر إليه من جهتي الربوبية والإلوهية فقوام تلك الحركات بالمراد لذاته ، فإذا أشرك الإنسان معه شيئاً فقد أفسد ذاته وقوامه ، لأن كل شيء بدونه لا يكون وما كان لغيره لا يصلح وبهذا فسر ابن تيمية [2] قوله تعالي " وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ " [3] وما هذا إلا لفساد الفطرة والإدراك والنية كما قد أشرنا من قبل . وذلك لأن النية ــ خاصة ــ هي الحكم الفصل في السعادة الإنسانية ، وتكون في سائر الأعمال لذا فمن جوامع الكلم قول الرسول ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مــا نوي .....) [4] وتوجيهها هو مدار الثواب والعقاب ، وهي في مفهوم ابن تيمية غير مقيدة بالنية الشرعية التي أمر بها الحق الإنساني ، وإنما يتسع مفهومها لديه فيقول (النية موجودة لكل متحرك) [5] لأنها تعم كل عمل ونية ولما كان الإيمان ينقسم إلي قسمين هما القول والعمل وكان الأول أصله التصديق والثاني أصله الحب إذ الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، ومحبة الشيء تتفاوت بحسب قوة الإيمان والمعرفة قوة وضعفاً ، وعلي هذا فإن (التصديق بالمحبة هو أصل الإيمان) [6] وهنا تتحقق السعادة في أعلي مراتبها ، إذا ما التقت العلتان اللتان تحركان القلب وأقصد العلة الغائية ، وهي عبادة الله ، والثانية العلة الفاعلية ، وهي الاستعانة والتوكل يقول ابن تيمية : (فالقلب لا

---

[1] ابن تيمية :كتاب النبوات ، قام بتصحيحه الشيخ / محمد حامد الفقي ــ مكتبة السنة المحمدية ــ بدون تاريخ ، وشرح حديث النزول صـ ١٤١، ١٤٢، المكتب الإسلامي ، ط٥ ، ١٩٧٧م .

[2] ابن تيمية ــ النبوات ــ صـ ٧٧ .

[3] سورة الحج : آية ٣١ .

[4] ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة ــ صـ ٢٠١ .

[5] المرجع السابق .

[6] البخاري، ج١ ، صـ ٣ ــ ٦٨ ، رقم ١ كتاب بدء الوحي ــ باب كيف كان بدء الوحي علي الرسول ﷺ

يصلح ولا يفلح ولا يلتذ ولا يسر ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه) [1] لذا فقد بين ابن تيمية أن المحبة أصبحت عنصراً يحرك المؤمن نحو فعل الخير وتحقيق السعادة .

ذلك إلي جانب نظريته في حرية قلب المؤمن ، لأنها أصبحت خالية من كل ما سوي الله (فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب كما أن الغني غني النفس) [2] وبذلك فقد تحققت حرية القلب لأنه (لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا يتلذذ ، ولا يسر، ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن ، إلا بعبادة ربه وحبه ، والإنابة إليه . [3]

" أسباب المحبة "

وليس المقصود بأسباب المحبة الجالبة لها من أصلها وإنما هي الأسباب التي تعمل علي نموها وزيادتها والتي هي كالخوف والرجاء [4] مثلاً فإنها محرك يدفع المحب نحو الله تبارك وتعالي ، ومن أهم هذه الأسباب :-

١- حب القرآن الكريم وتلاوته .

فتلاوته وتدبره يتولد عنهما شيئان : الأول : قوة الحب للحق ، والثاني : معرفته وهما ما ينبثق عنهما الخوف منه وحده ، وإفراده بالرجاء عمن سواه ، فحب القرآن وتلاوته يزيدان الإيمان في القلب ــ والإيمان يزيد وينقص ــ كما أن المعرفة بمعانيه تحصل في القلب رغبة ، وتدفع عنه من الشر ما لا يستطيع دفعه غيره قال تعالي " وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً " [5].

---

(١) ابن تيمية ــ السلوك ــ صــ ١٩٤ من مجموع الفتاوي الكبري .

(٢) المرجع السابق ، صــ ١٨٦ .

(٣) ابن تيمية ــ الإيمان ــ صــ ١٩ دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر والتوزيع ــ الإسكندرية ــ بدون تاريخ .

(٤) ابن تيمية ــ الفتاوي الكبري ، ج١ ، صــ ٩٥ .

(٥) سورة الأنفال (٢)

وتلاوة القرآن عند ابن تيمية إنما هي القيام بأوامر الحق واتباعها وليست ترديداً باللسان أو بالقلب فقط قال ابن مسعود في تفسير قوله تعالي " الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ "[1] قال (يحلون حلاله ويحرمون حرامه ، ويؤمنون به ، ويعملون بمحكمه) [2] وهذا الحب المتزايد للقرآن الكريم مستمر علي مر القرون ، وتقديسه يدل علي شدة تأثيره في القلوب حتي أنه ليعتبر من (أعظم الأمور الخارقة للعادة) [3] لذا فإن من خصائص القرآن الطمأنينة في نفوس المؤمنين من الإنس والجن ويزيدهم خشوعاً وسكينة ويقيناً قال تعالي " أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ "[4] فيندفع القلب المطمئن في ترجمة تلك الأعمال والأوامر، وهذا أفضل شيء يعطاه العبد قال ﷺ (سلوا الله اليقين والعافية) [5] فبالقرآن يرتقي العبد في الدرجات وبه يعيش القلب في نور الآيات التي تزيدهم نورا . ويتعدى تأثير القرآن إلي الجبال وسائر الجمادات قال تعالي " لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ "[6] فهاهنا تنبيه فيه توبيخ للإنسان علي ما في قلبه من قسوة وغلظة مع ضعفه وحقارته عند سماع القرآن بخلاف الجبل الصلد الذي لو أنزل عليه القرآن لتخشع وتصدع خشية من الحق تعالي [7] يقول الطبري [1] (ت٣١٠ هـ) (وهذه الأشياء للناس وذلك

---

[1] سورة البقرة (١٢١)

[2] ابن تيمية : العبودية ٣٣، الإيمان ١٢٧ـ١٢٨ .

[3] الصفدية ١/٢٢٣ـ١٢٤ ـ تحقيق د/ محمد رشاد سالم ـ مطابع حنيفة الرياض / ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦م.

[4] سورة الرعد : آية ٢٨ .

[5] الترمذي ٥/٥٧٧ كتاب الدعوات باب العفو والعافية .

[6] سورة الحشر (٢١)

[7] أبو حيان ـ البحر المحيط ٨/ ٢٥٠ (محمد بن يوسف) ، طبع بالتصوير عن طبعة مولاي السلطان عبد الحفيظ سلطان المغرب ، ط٢ ، دار الفكر ١٣٩٨ هـ / ١٩٨٧م .

تعريفه جل ثناؤه إياهم أن الجبال أشد تعظيماً لحقه منهم مع قساوتها وصلابتها)[٢].

٢- المعرفة [٣]

لقد اتفق السلفية ومشايخ الصوفية علي الاستدلال الفطري في معرفة الله ، قال رجل للنوري (ت ٢٩٥هـ) ما الدليل علي الله ؟ قال : الله ، قال فما العقل ؟ قال : العقل عاجز ، والعاجز

---

[١] الطبري : تفسير الطبري ، تحقيق (محمود محمد شاكر) راجعه وخرّج أحاديثه أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف .

يري الهجويري في ـ كشف المحجوب ومعرفة الله تعالي علي نوعين : أحدهما : علم ، والآخر : حال والمعرفة العلمية هي قاعدة جميع خيرات الدنيا والآخرة . وأهم الأشياء للعبد في جميع الأحوال والأوقات معرفة الله جل جلاله فالمعرفة حياة القلب بالحق ، وإعراض الشر عما سوى الحق ، وقيمة كل امرئ بمعرفته ، ومن لا معرفة له لا قيمة له ، فالناس من علماء وفقهاء وغيرهم سموا صحة العلم بالله : المعرفة ، ومشايخ هذه الطائفة سموا صحة الحال بالله : المعرفة .

انظر ـ كشف المحجوب ـ للهجويري / دراسة وتحقيق وتعليق د/ سعاد عبد الهادي قنديل صـ ٦٢٦ .

وجاء في (المقدمة في التصوف) للسلمي ، تحقيق / يوسف زيدان ـ أن المعرفة ثلاثة ، معرفة اللسان وهو الإقرار ، ومعرفة القلب وهو التصديق ومعرفة الروح وهو اليقين ، والمعرفة هي أول فرض افترضه الله علي عباده ، بدليل قوله تعالي (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (الذاريات : آية ٥٦) قال ابن عباس : أي ليعرفون ..... صـ ١٣٥ .

[٢] تفسير القرطبي ٢٨/ ٣٢ .

[٣] والمعرفة من النهايات وفي كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي :

النهاية : عند الصوفية متعددة الدلالات فهي بكسر النون : (الرجوع إلي البداية) .

وجاء في معجم مصطلحات الصوفية صـ ٢٥٩ تأليف د/ عبد المنعم حفني ـ دار المسيرة ـ بيروت (أرباب النهايات : استقامات بواطنهم وظواهرهم لله ، وهم عند الله حقيقتهم ـ جعلهم الله تعالي من جنوده في خلقه بهم يهدي وبهم يرشد ، وبهم يجذب أهل الإرادة ، وظاهرهم محفوظ ، وباطنهم معمور بالعلم)

في معجم مصطلحات الصوفية (للكاشاني) هي : الإحاطة بعين الحقيقة بالحقيقة علي ما هي عليه.

لا يدل إلا علي عاجز مثله "[1] وهذه المعرفة الفطرية متوقفة علي سلامة الفطرة أصلاً فبفسادها تضعف المعرفة ، وبالتالي يضعف الحب إذ المعرفة أصل المحبة يقول الشيخ (والحب يقوى بسبب المعرفة وسلامة الفكرة ، ونقصها من نقص المعرفة) [2] والفطرة لا تفسد إلا بالأهواء الفاسدة ونسيان الذكر ويرى ابن تيمية أن " من فسدت فطرته فاحتاج إلي دواء فهم محتاجون إلي النظر والاستدلال لتذكيرهم بالمعرفة الفطرية الضرورية ، وقد أخطأ كثير من أهل الكلام بأن المعرفة لا تقع إلا بنظر وكسب وحجتهم في ذلك أن المعرفة لو وقعت ضرورة بدون كسب ونظر لارتفع التكليف ، وهذا خطأ " [3] قال تعالي " نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ "[4] وليس معني هذا أن الإنسان يظل علي الفطرة الأولي ثابتاً دون تغيير ودون زيادة ، وإنما المعرفة تتفاوت بتفاوت الجهد المبذول للمحافظة علي سلامتها بالفطرة ، وإلا لتساوى الناس جميعاً في درجة واحدة في المعرفة أي أنه ينبغي أن تقترن المعرفة الفطرية بجهد مبذول للمحافظة عليها قال تعالي (في الحديث القدسي : ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتي أحبه) [5] والسلف مع

---

[1] الكلاباذي / التعرف صـ ٦٣ . وما بعدها .

[2] ابن تيمية ـ درء العقل والنقل ، طبع علي نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،ط ١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ج٦ ، صـ ٧٣ .

[3] جامع الرسائل / ابن تيمية صـ ١٤٧ ، تحقيق د/ محمد رشاد سالم ط ١ ، ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م

[4] سورة الحشر (١٦)

[5] مسند الإمام أحمد بن محمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ) المسند / شرحه ووضع فهارسه الشيخ / أحمد محمد شاكر، ط٢ ، دار المعارف ـ مصر ، وقد جمع الإمام أحمد بن حنبل ـ ثلاثين ألف حديث في مسنده .

هـــذا يــرون أن الفطــرة هـــي (الإســـلام بدلــيل الآيات القرآنية والأحاديـــث النـــبوية التـــي تشـــرح لـــنا معنـــي الفطرة وإذا احتاج الـــناس إلـــي الـــنظر والاســـتدلال للتذكير بالفطرة التي خلقوا عليها فـــإن الـــنظر يكـــون فـــي كتاب الله الكريم وذلك خير من النظر في كتـــب المتكلميـــن)[1] والـــنفس الإنسانية قد جبلت علي حب الخير وبغض الضار،ولكن يعرض لها شيئان يفسدانها :-

١- الشهوات[٢] التي تصد عن طريق الاتباع .

٢- الشبهات[٣] التي تصد الإنسان عن طريق الخير والفلاح .

وابـــن تيمـــية يشـــبه مـــن هـــذا حالـــه باليهود والنصاري فيري أن الـــيهود لهـــم معـــرفة بـــلا قصـــد ، والنصـــاري لهم قصد بلا معرفة قال تعالـــي " وَقَـــالُوا لَـــوْ كُـــنَّا نَسْـــمَعُ أَوْ نَعْقِـــلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ "[٤] وبذلك يتضح أن من فسدت فطرته فقد فسدت قوتاه العلمية والعملية .

---

(١) د/ الطبلاوي محمود سعد / التصوف في تراث ابن تيمية صـــ ١٠٠ ـــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولي ، ١٩٨٤م .

(٢) شَهِيَهُ : كرضية ودعاه واشتهاه وتَشَهّاهُ : أحبّه ورغب فيه ورجلٌ شَهِيٌ وشهوان وشهاوني وهي شَهْوي : ج : شهاوَي ، وتشهّي : لقترح شهوة بعد شهوة .

وفي المصْباح : الشهوة : اشتياق النفس إلي شيء ، والجمع شهوات ـــ ١ ـــ هـــ . صـــ ١٦٧٨ .القاموس المحيط للفيروزآبازي ـــ تحقيق ـــ مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ـــ إشراف : محمد نعيم العرقسوسي ، ط٥ ، ١٤١٦ هـــ ـــ بيروت ـــ مؤسسة الرسالة للطبع والنشر والتوزيع ، تأليف ـــ العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبازي (ت ٨١٧هـــ) .

(٣) جاء في القاموس المحيط الشبهة : هي الالتباس والمِثْلُ وشُبِّه عليه الأمر تشبيهاً لُبِّس عليه صـــ ١٦١٠ .

(٤) سورة الملك (١٠)

٣- الذِّكْـــرُ [١]

إن " توحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته واستعانته في القرآن : كثير جداً بل هو قلب الإيمان وأول الإسلام وآخره " [٢] فإذا وحد الموحد ربه تعالي وجب عليه ذكره وإن كثرة ذكر المحبوب تجعل القلب دائم التعلق والاشتغال به وقد حثنا المولي جل وعلا في كثير من آياته علي الذكر فقال تعالي " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً" [٣] وأفضل الذكر (لا إله إلا الله) [٤] وقال ﷺ (اذكروا الله حتي يقولوا مجنون) [٥] ويقسم ابن تيمية الذكر مراتب ثلاثة : **الأولي** : اجتماع الذكر بالقلب واللسان معاً ، **والثانية**: بالقلب وحده ، **والثالثة** :انفراد اللسان ، وذكر الله تعالي باللسان فقط وإن لم يكن للقلب فيه نصيب فإن ابن تيمية ــ رحمه الله تعالي ــ يرى أن هذا خير من عدمه [٦] والذكر يجعل العبد يعيش في معية الله قال تعالي (في

---

[١] جاءت لفظة (الذكر) في القرآن الكريم بجميع مشتقاتها في القرآن الكريم (٢٦٨ مرة)
انظر / (محمد فؤاد عبد الباقي ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) . دار الحديث ــ القاهرة ، ط١ ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م . وفي القاموس المحيط الذكر : بالكسر : الحفظ للشيء ، كالتذكار والشيء يجري علي اللسان ، والصيت صـ ٥٠٧ .
وعن أبي موسي الأشعري رضي الله تعالي عنه عن النبي ﷺ قال : مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره ، مثل الحي والميت ، رواه البخاري ورواه مسلم وقال : " مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت "
(الإمام ــ محي الدين النووي ــ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م .

[٢] قاعدة في توحيد الألوهية ــ تحقيق د/ محمد السيد الجليند ــ القاهرة ــ دار الفكر الحديثة .

[٣] سورة الأحزاب (٤٢)

[٤] الحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) المستدرك علي الصحيحين ، مكتبة ومطابع النصر الحديثة ــ الرياض .

[٥] ابن تيمية : الاستقامة ــ تحقيق د/ محمد رشاد سالم ، طبع علي نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط١ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣م .

[٦] المرجع السابق ، ٢/ ١٧ .

الحديث القدسي : وأنا معه حين يذكرني ....) [1] وكيف لا يكون العبد مع ربه وهو بذكره يرتع في جنته قال : ﷺ (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا : قيل وما رياض الجنة ؟ قال مجالس الذكر) [2] ولعلها الجنة التي عاشها ابن تيمية " وأخبر أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة [3] ويشتد الذكر للحق ويقوي الحب بمطالعة نعمه عز وجل ، إذ النفوس قد جبلت علي حب من أحسن إليها .

قال ﷺ : (أحبوا الله لما يغزوكم به من نعمه) [4] وقد قال الله تعالي يذكرنا بنعمه علينا مبيناً أن في ذلك فلاحنا " "فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ " [5] وقال " وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً " [6] ولا يقصر ابن تيمية الذكر علي الأذكار التقليدية ولكنه واسع شامل يمتد حتي يصل إلي كل (ما تكلم به اللسان ، وتصوره القلب مما يقرب إلي الله من تعلم علم وتعليمه ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو من ذكر الله) [7] يقول الإمام النووي [8] (ت ٦٧٦هـ) (اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في

---

(١) الترمذي ٥/ ٥٨٠ ، كتاب الدعوات ، باب في حسن الظن بالله وقال حديث حسن صحيح ، مسلم / ١٧ /٢ ، كتاب الذكر والدعاء ، باب الحث علي ذكر الله .

(٢) الترمذي ٥/ ٥٣١ ــ ٥٣٢ ، كتاب الدعوات باب ٨٣ ، وقال حديث غريب .

(٣) ابن تيمية ــ الاستقامة ٢/ ١٧ .

(٤) الطبراني :(معجم للطبراني الكبير) الدار العربية للطباعة ، بغداد ــ ط١ ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م

(٥) سورة الأعراف (٧٤)

(٦) سورة لقمان (٢٠)

(٧) ابن تيمية : العقل والنقل ١٠/ ٦٦١ ،

(٨) الإمام النووي ــ الأذكار ــ مصطفي الحلبي ١٣٤٨ هـ ، القاهرة .

ترجمة ــ الإمام النووي

هو الإمام يحيي بن شرف بن مُري حسن بن حسين بن حزام أبو زكريا محي الدين ــ ولد عام ٦٣١هـ ، في قرية (نوي) من قري حوران بالقرب من دمشق تتلمذ علي كثير من علماء عصره والمشهورين كان زاهداً ورعاً وقوراً مهيبا ، لا يصرف ساعة في غير طاعة الله ، وقد ولي النووي مشيخة دار الحديث الأشرفية ، يقول الشيخ قطب الدين اليونيني : كان أوحد أهل زمانه في العلم والورع والعبادة والتقلل وخشونة العيش وتوفي رحمه الله تعالي ٦٧٦هـ . ودفن بالقرية التي ولد بها بعد حياة علمية حافلة .

(انظر ترجمته ــ في طبقات الشافعيين للسبكي) وأيضاً ــ تذكرة الحفاظ ــ للذهبي .

التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها بل كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر لله تعالي كذا قاله سعيد بن جبير) [1]

وإذا استغرق الذكر الذاكر انطبعت في نفسه الرضا حتي سكنت روحه فكف عن الشكوي وقبل النوازل بنفس راضية " وهو مقام لا يقدر علي سلوكه إلا قلة من أصحاب السلوك " [2] ويرصد ابن تيمية الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في سائر الأعمال من أكل وشرب ونكاح ولباس وركوب ونوم وقيام ودخول المسجد والخروج منه وكذلك دخول الخلاء والخروج منه وعند المطر وعند الرعد [3] فهذا عنده هو الذكر الذي (يوصل الذاكر إلي المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً) [4]

٤- النوافل [5]

والمحبة تقتضي التقرب إلي المحبوب فإن الذي يحب الله تعالي يحب التقرب منه بما فرضه ثم التقرب إليه تعالي بالنوافل مصداقاً لما جاء في الحديث الشريف وهي تأتي بعد الفرائض التي هي أساس القرب والحب (فحب الله لعبده بحب فعل العبد لما يحبه الله) [6] والنوافل تأتي في المرتبة الثانية بعد الفرائض . حيث يقول إن هذا التقرب ــ أي بالنوافل ــ (إنما يكون إذا فعلت الفرائض) [7] وهو بهذا يخالف المبتدعة والضالين في الفهم

---

(١) النووي ــ الأنكار ، صـ ٥ .

(٢) ابن تيمية ــ جواب أهل الإيمان ، صـ ٢٤ ، مطبعة التقدم ، ط١ ، ١٣٢٢هـ .

(٣) ابن تيمية ــ العقل والنقل ، ١٠/ ٢٣٠ ــ ٢٣١ ــ وانظر الكلم الطيب .

(٤) ابن القيم ــ المدارج ٥/ ٦٢٣ ــ دار التراث العربي ــ القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

(٥) النفل : والنافلة ــ عطية التطوع ومنه نافلة الصباح و (التنفل) التطوع . (مختار الصحاح ، صـ ٦٧٤ دار الرسالة ــ الكويت وأيضاً : النافلة : الغنيمة والعطية وما تفعله مما لم يجب و (تنفل) صل النوافل ، القاموس المحيط ، صـ ١٣٨٤ ، الرسالة ــ مؤسسة .

(٦) ابن تيمية : جواب أهل الإيمان ١/ ٨٦ .

(٧) ابن تيمية : السابق صـ ٨٦/١

والقصد أمثال ابن عربي (ت ٦٣٠ هـ) في ظنه عندما صرح في كتابيه (الفتوحات المكية وفصوص الحكم) ، بأن قرب الفرائض يتم بعد قرب الفضائل [١] " والنوافل تجعل الحق غطاءه وتلك تجعل الحق عينه " [٢] وهذا الخطأ إنما أقام نتيجته علي أصل المذهب في وحدة الوجود بينما حديث التقرب يناقض مذهبه ــ والمحبة الناشئة عن النوافل محبة مستحبة وخاصة بالسابقين الذين فعلوا الفرائض ثم ألحقوها بالنوافل ، وفي الجانب الآخر محبة الفرائض الواجبة علي كل العباد التي من تركها نال بسبب ذلك العقوبة والعذاب .

٥- الزهد [٣]

إن المحبة في كل الأمور قائمة علي تحقيق الأغراض وخصوصاً في الأمور الدنيوية ولكن حب الله تعالي يبقي وحده (المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره) [٤] فإذا تحقق العبد بالزهد فإنه يجمع بين حبين يجمعان عليه نفسه وهمه وأولهما حب الله تعالي ، وحب الناس ، وقد جاء رجل إلي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله دلني علي عمل إذا عملته أحبني الله ، وأحبني الناس فقال له ﷺ (ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس

---

[١] ابن عربي ــ الفصوص ــ صــ ١٨٣ ، تحقيق وتعليق د/ أبو العلا عفيفي ، ١٣٦٥هــ / ١٩٤٦م ــ القاهرة ــ عيسي البابي الحلبي .

[٢] ابن تيمية ــ جواب أهل العلم والإيمان ، صــ ١٣٢ .

[٣] الزهد : ضد الرغبة تقول (زهد) فيه وزهد عنه في باب سلِمَ و(زُهْداً) وأيضاً (وَزُهَد) يَزْهَد بالفتح فيهما (زُهْداً) وأيضاً (زهادةً) بالفتح لغة فيه و(التزهد) التعبُّد ، و(التزهيد) ضد الترغيب و (المزهِد) بوزن المرشد القليل المال ، وفي الحديث (أفضل الناس مؤمن مُزْهِدٌ) ــ مختار الصحاح ــ لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦ هــ) دار الرسالة ــ الكويت ، صــ ٢٧٦ .

[٤] ابن تيمية ــ السلوك ١٠/ ٦٠٥ .

يحبك الناس) [1] وبهذا فإن ابن تيمية قد فهم الزهد علي أنه ليس عزوفاً عن الدنيا وإنما هو (زهد فيما لا ينفع في الآخرة) [2] وأما الزهد في النافع فهو (جهل وضلال) قال تعالي : " وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا "[3] وقال ﷺ (احرص علي ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز) [4] وقد شكل ابن تيمية من الزهد (مضموناً روحياً) [5] حيث يرى أن الزهد قد يكون مع الغني ويكون مع الفقر كذلك.

مفسدات المحبة

وكما قد بينت أن للمحبة أسباباً نتجت عنها وقويت بسببها ، فهناك ما يناقض ذلك من المعوقات والمفاسد التي تثبط المحب فتقف حاجزاً بينه وبين الوصول إلي محبوبه فلا يقوم بالواجب الحبي تجاهه ، وأمهات المفاسد كلها ، قد تقع من أمرين :

١- الكبر والحسد ٢- الشرك

فإن باب محبة الله تعالي ضل فيه فريقان من الناس : فريق من أهل النظر والكلام والمنتسبين إلي العلم ، جحدوها وكذبوا بحقيقتها .

وفريق من أهل التعبد والتصوف والزهد ، أدخلوا فيها من الاعتقادات والإرادات الفاسدة ما ضاهوا به المشركين .

---

[1] رواه ابن ماجة وغيره بأسانيد حسنة .

[2] ابن تيمية ــ العقل والنقل ٥/١١ / طبع علي نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ط١ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨١م .

[3] سورة القصص (٧٧)

[4] ابن ماجة ٢/ ١٣٩٥ ، كتاب الزهد ، باب التوكل واليقين . (سنن ابن ماجة.حقق نصوصه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلّق عليه / أحمد فؤاد عبد الباقي .

[5] د/ مصطفي حلمي ــ الزهاد الأوائل ، صـ ٢٦ ، دار الدعوة ، ط١ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩م .

فالأولون يشبهون المستكبرين ، وهؤلاء يشبهون المشركين ، ولهذا يكون الأول في أشباه اليهود ، ويكون الثاني في أشباه النصارى وقد أمرنا الله تعالي أن نقول [1] اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) [2]

١ – الشرك

" من المعلوم أن كل حي فله إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة ، ولا صلاح للموجودات إلا أن يكون كمال محبتها وحركتها لله تعالي كما لا وجود لها إلا أن يبدعها الله [3] ، ولهذا قال تعالي : " لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا "[4] فمن أشرك مع الله أحداً في الذل أو في الطاعة (لم يحصل له حقيقة الحب والتعظيم ، فإن الشرك يوجب نقص المحبة) [5] لذا كان المؤمن أشد حباً لله تعالي " وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ " [6]وعلي قدر تخليص القلب من الشركاء تزداد المحبة حتي يصير الواحد من بني آدم (خيراً من ملئ الأرض من الآدميين) [7] وصدق الله حيث يقول " وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ " [8]ودين الله " ما بعث به رسله ،

---

[1] ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة ، صـ ٢٤٥ .

[2] فاتحة الكتاب (٦، ٧) .

[3] ابن تيمية ، قاعدة في المحبة ، صـ ٢٠٠ .

[4] سورة الأنبياء (٢٢)

[5] ابن تيمية ــ الإيمان الأوسط ، صـ ٧٧ ، مكتبة الفرقان ومكتبة الإيمان ــ بدون تاريخ .

[6] سورة البقرة (١٦٥)

[7] المرجع السابق ، صـ ١١٠ – ١١١ .

[8] سورة البينة (٥)

وأنزل به كتبه ، وهو الصراط المستقيم وهو طريق أصحاب رسول الله ﷺ خير القرون ن وأفضل الأمة ، وأكرمهم علي الله تعالي بعد النبيين [1].

فالشرك طريق الإفساد وتحول القلوب عند رب العباد مما يحقق إنتفاء طاعة العبد لأمر الربسبحانه وتعالى وإنكار العبد لأمر الرسول ﷺ وهذا يؤدى إلى تحول العبد من المحبة إلى الكراهية من اليقين إلى الشك ومن الإيمان إلى الكفر كل هذه الأشياء تجعل تلك النطفة أى القلب كالنكتة السواداء ينتفى فيها معين الخير ويبقى الشر .

فالشرك يؤدى بصاحبه إلى حب النفس والأنانية وإنتفاء غاية أفعالة .

لإنتفاء الثواب والعقاب من ذاكرته العقلية ولهذا يعد الشرك من مسفدات المحبة سواء لله سبحانه وتعالى أو لعباده .

---

[1] ابن تيمية ، الرسالة التدمريه ، صـ ٨٣ ـ تحقيق وتعليق (محمد حامد الفقي) رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية ـ مكتبة السنة المحمدية .

٢ ــ الكبر والحسد

وهما من أمراض القلوب وهما من إضرار القلب وكسبه المذموم وقد أخبرنا الله أنه إثم وأنه باطن [١] حيث قال : " وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ [٢] ويري الشيخ أن الحسد " هــو البغض والكراهة لمــا يــراه من حسن حال المحسود) [٣] ويضرب لنا مثالاً في الحسد بقصة يوسف عليه السلام مع اخوته حيث حسدوه وأخوه علي تفضيل الأب لهما [٤] والكبر والحسد يمنعان النفس الإنسانية من أن تسلم قيادها للمولي عز وجل ، حتي لو اجتمعت فيها قوتي العلم والتصديق ، ذلك لأن الإرادة قد انتفت ، أي أنه لابد أن تجتمع القوي الثلاث ــ العلم بالحق والتصديق به مع (إرادة الحق والحب له) [٥] فعندما تغيب الإرادة ويبقي الاستكبار يوجه المحبة لغير الله تعالي فيصرفه عما جبل عليه في الفطرة (والقلب إنما خلق لأجل الله) [٦] وقد نهي النبي ﷺ عن الحسد والبغض المؤدي إلي الهوي المضل فقال : (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا) [٧] وقال أيضاً : (دب فيكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، وهي الحالقة ، أما إني لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين) [٨]

أقسام المحبة ودرجاتها

بعد أن اتضح أن الأعمال والإرادات والنيات كذلك أصلها الحب وأن الأعمال تبعاً لذلك منها ما هو صالح ومنها ما هو فاسد وجب توضيح أن

---

(١) المحاسبي ــ القصد والرجوع إلي الله صـــ ٩٣ / دراسة وتحقيق / عبد القادر أحمد عطا ــ دار التراث العربي ، ط١ ، ١٤٠٦هـــ / ١٩٨٦م .

(٢) سورة الأنعام : آية ١٢٠ .

(٣) ابن تيمية ــ أمراض القلوب ــ صـــ ٢٥ .

(٤) المرجع السابق ، صـــ ٣٣ .

(٥) ابن تيمية ــ الإيمان الأوسط ، صـــ ٧٧ .

(٦) ابن تيمية ــ العقل والنقل ١٠/ ١٢٩ .

(٧) مسلم : ١٦ / ١١٥ ، كتاب البر والصلة والأدب ، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر .

(٨) المرجع السابق ص ١١٥ .

بعد أن اتضح أن الأعمال والإرادات والنيات كذلك أصلها الحب وأن الأعمال تبعاً لذلك منها ما هو صالح ومنها ما هو فاسد وجب توضيح أن المحبة جنس عام تحته أقسام ودرجات متفاوته في الوصف والقدر لذا فقد قسمها ابن تيمية إلي قسمين :

الأول : المحبة المحمودة

" وهذه هي المحبة الإخلاصية المقترنة بالتوحيد والخالصة لله وحده علي متابعة رسول الله ﷺ "[1] وقد انقسمت هذه المحبة إلي درجات بحسب زيادة الإيمان ونقصانه في القلب ، فأهل التوحيد " الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يبقي أحد منهم في العذاب ، وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها "[2] وقد انقسمت المحبة تبعاً لهذا الأصل إلي قسمين ــ **الأول** (واجبة) وهي فرض علي الإنسان ويجب عليه فيها أن يكون الحق في قلبه علماً ومعرفة وأن يحبه هو ورسوله ﷺ ، وأن يكونا أحب إليه مما سواهما وأن لا يبغض ما أحبه الله ورسوله ، وتلك الدرجة تتطلب منه محبة جميع ما أحبه الله تعالي [3] فإذا حقق الإنسان هذا كان من المقتصدين فإذا ترك شيئاً من الواجب المفروض عليه كان ظالماً لنفسه " واندرج تحت القسم الثاني من المحبة وهي المذمومة " [4].

أما الدرجة الثانية من هذه المحبة : فهي المستحبة ولا يقوم بها إلا السابقون المقربون أولئك الذين وافق مرادهم مراد الحق تبارك وتعالي

---

(1) د/ مصطفي حلمي ــ ابن تيمية ، صـ ٣٤٣ ، دار الدعوة ــ الإسكندرية .

(2) ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة ، صـ ١٩٧ .

(3) ابن تيمية ــ الرسائل والمسائل ــ الرد علي ابن عربي ، صـ ٦٣ ، ط١ ، دار المنار .

(4) المرجع السابق ، صـ ٦٤.

موافقة تامة ، فأتوا بالفرائض والنوافل فصاروا كما ذكر الله عنهم في الحديث القدسي (ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتي أحبه ...) [1]

الثاني : المحبة المذمومة

قد تذكر المحبة المطلقة " لكن تقع فيها الشركة " [2] كما قال الله تعالي : " وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ "[3] وهي من أفسد أنواع المحبة حيث يترك العبد ما فرض الله عليه ، ويكون عمله لغير الله " ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة وجماع القرآن النهي عن هذه المحبات ولوازمها "[4] ويبين ابن تيمية الفرق بين القسمين في المحبة لله والمحبة مع الله ، بحب أبي بكر للنبي ﷺ الذي كان خالصاً لله تعالي ، وحب أبي طالب الذي أحب النبي لهواه لا لله تعالي فكان أن تقبل الله من أبي بكر دون أبي طالب "[5]

حدود المحبة

لقد اختلفت الآراء حول تحديد معني المحبة إلي درجة كبيرة وعلي الرغم من هذا فإن (الحدود لا تزيدها إلا خفاء) [6] فكُلٌّ يصف حالته وإدراكه الشخصي ، أما أن يستقصي الوصف فيها فهذا محال ، وذلك لأن

---

(1) ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة ، صـ ١٩٧ ــ ضمن ــ جامع الرسائل الكبري ــ المجموعة الثانية ــ تحقيق د/ محمد رشاد سالم ــ الطبعة الثانية ــ مطبعة المدني ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .

(2) المرجع السابق ، صـ ١٩٦ .

(3) سورة البقرة (١٦٥)

(4) المرجع السابق ، صـ ١٩٧ .

(5) ابن تيمية ــ العقل والنقل ١١/ ٥٢٦ .

(6) شرح العقيده الطحاوية ، لعلي ابن أبي العز (مكتبة الدعوة وشباب الأزهر)صـ ١١٦ ، مدارج السالكين ٣/ ٨ .

محبة الله صفة من صفاته (ليس لها حد تنتهي إليه) [1] والمحب كلما ازداد لله حباً كان الله له أشد حباً فالمحب ـ وإن استطاع في نفسه ـ وصف حبه ـ لما استطاع وصف حب الحق له لعظمته وقوته . وكان رسول الله ﷺ يقول (سبحانك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علي نفسك) [2] ذلك لأنه تعالي يحيط ولا يحاط ، وقد حدث الخلط في حقيقة المحبة ، فصار كل فريق يفسرها حسب هواه ومعتقده ، إلي درجة أنه إذا ذكر هذا المصطلح . فلا يكاد يذكر معه سوي تلك العلاقة الحسية بين الرجل المرأة ، فضلاً عن تأويل بعض الفرق للمعني القرآني وهؤلاء الذين أنكروا حقيقة المحبة لا يمكنهم إنكار لفظها ، لأنه جاء في القرآن الكريم والسنة علي الحقيقة لا المجاز والتأويل ، فبين ابن تيمية في كثير من كتبه أن الإجماع وكتب اللغة علي أن محبة الله تعالي من العباد حقيقة لا مجاز فيها فقال : (فعلم أن دلالة الإجماع علي أن هذا ليس مجازاً بل حقيقة ، فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لا عن محبته نفسه أمر لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجاز فحمل الكلام عليه تحريف محض) [3] وليس معني هذا أن ابن تيمية ينكر المحبة الطبيعية فإن القرآن قد قرره بما لا يدع مجالاً لأحد في إنكاره ولكنه يوظفه في طاعة الله تعالي ، وإلا فهو حب باطل زائل والمحبة كما قلنا من قبل محبة فطرية قال تعالي " فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا " [4] وهي كما يري ابن تيمية أن الفطرة هي محبة الله تعالي وهي القوة التي أودعها الله في النفس وبها نعرف الله ونشهد به ونحبه ونخلص له في عبادته ، وأن محبة الله فطرية في النفس ، وقد ساق بن تيميه الأدلة التي يرجح بها

---

[1] ابن تيمية ـ قاعدة المحبة ، صـ ٢١٠ .

[2] الحديث (لا أحصي ثناءً عليك) سنن أبي داود ، ج١ ، صـ ٢٣٢ ، رقم ٨٧٩ .

[3] ابن تيمية ـ التحفة العراقية ـ صـ ٧٦ .

[4] سورة الروم (٣٠) .

رأيه في السنة النبوية بعد أن استدل علي ذلك من القرآن بآية الميثاق وغيرها فيقول: [1] " والنبي ﷺ شبه اللبن بالفطرة لما عرض عليه اللبن والخمر فقال له جبريل عليه السلام ــ أصبت الفطرة ولو أخذت الخمر لغوت أمتك " فإذا كان الطفل مفطوراً لا محالة أن يتعرف طريق ثدي أمه ، فكذلك هو مولود علي أن يعرف الله والمعرفة ضرورية لا محالة إذا لم يوجد معارض ، فإذا أمكن في الإنسان أن يحب الله ويعبده فيخلص له الدين كان فيه قوة تقتضي ذلك ، وقد ثبت أن في النفوس قوة المحبة والذل له ، فالإقرار بالصانع بدون عبادته بالمحبة له لا يكون الإقرار نافعاً ولو لم تكن محبة الله فطرية في النفس لكانت النفس قابلة لها ولضدها علي السواء وهذا ممتنع ، ولابد لهذه الفطرة والخلقة من قوت وغذاء يمدها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علماً وعملاً ، ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملة بالشريعة المنزلة وهي مأدبة الله كما قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود : " إن كل آدب يحب أن تؤتي مأدبته وإن مأدبة الله هي القرآن " وقد كان ابن تيمية يري أن المحبة أصل الإيمان والإيمان ليس شيئاً محسوساً وإن كان يزيد وينقص وإنما هو في القلب قال ﷺ (الإسلام علانية ، والإيمان في القلب) أي أن الحب أمر لطيف تتبني عنه لوازمه (واللازم لا يدل إلا إذا كان ملزماً) [2] وتتجلي هذه اللوازم في الأعمال فإن الأعمال بها يتميز الخبيث المنافق من الطيب المحب الصادق وعلي ذلك ، فلا يستطيع المرء تحديد معني الحب القلبي بحد معين فهو (أمر غيبي لا يضبطه إلا الله) [3] وإنما

---

[1] ابن تيمية ــ العقل والنقل ٤/ ٧٩ ، ٨٠ .

[2] ابن تيمية : الإيمان / ٢٠٠ ، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر والتوزيع ــ الإسكندرية ــ بدون تاريخ .

[3] ابن تيمية : الإيمان الأوسط ١١٠ــ ١١١ ، منهاج السنة ٣/ ١٠١ ، ط١ / تحقيق د/ محمد رشاد سالم ــ مكتبة العروبة ــ مطبعة المدني ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

يتحدد ويظهر بالآثار العملية التي هي مقياس الزيادة أو النقص في المحبة أو عدمها ، وهذه الآثار لابد أن توزن عندئذٍ بميزان العبودية لله تبارك وتعالي .

أثر محبة الله تعالي للعبد :

تظهر محبة الله تعالى للعبد ، من خلال أفعال العبد تجاه الله سبحانه وتعالى ، وتلك الأفعال لا تخرج عن قاعدة الامتثال للأمر والنهى الإلهى بالإيمان بالله تعالى وسلامة الاعتقاد فى ذاته وصفاته وأسمائه العلى والإيمان بالمحكم والمتشابه ، ثم يأتى تأديب الجوارح بالعبادات وتهذيبها بحسن الخلق وأسمى التخلق هو التخلق بأخلاق النبى ﷺ فى أفعاله وأحواله وسكناته وحبه وحب آل بيته الكرام وبر الوالدين وبر الناس وصلة الأرحام وحسن التوكل على الله تلك الأفعال إن صدقت أحب الله عبده ويظهر أثر ذلك على العبد فى محبة العباد له ، ولعل الدراسات المتعددة والكثيرة التى تركها لنا الرعيل الأول من الزهاد الأوائل وكذلك المتصوفة لدليل على ذلك فالباحث والمدقق يجد أن علماء الأمة قد جمعوا للقيم الأخلاقية فى مصنفات شئ لم تقتصر على الفقة أو أصوله بل امتدت إلى علم الحديث الذى يقوم على تحرى الصدق واليقين للتحقق من صحة أقوال النبى ﷺ فيما يعرف بالحديث الصحيح لأن عليه تبنى الأحكام وكذلك ظهر إسهام جيل آخر من المتكلمين والفلاسفة فى مجال التعويل على الذوق العقلى وظهر ذلك جليا فيما صنفه ابن سينا فى ذلك الموضوع المحبة هنا يختص بكتابات السلف الصالح والزهاد الأوائل وكثير من المتصوفة فالباحث المدقق يجد أن نصوص الكتاب والسنة واتفاق السلف ومشايخ الطريقة من الصوفية والمتكلمين أمثال القشيري (ت ٤٦٥هـ) والغزالي (٥٠٥هـ)

وأبـي طالـب المكـي (ت ٣٨٦ هـ) " أن الله تعالي يحب ويحب "[١] وإذا كـان الحـب أصـل كـل عمـل من حق وباطل وهو أصل الأعمال الدينـية وغـيرها وأصـل الأعمـال الدينـية حـب الله ورسوله ، كما أن أصـل الأقـوال الدينـية تصـديق الله ورسوله " فإن التصديق بالمحبة هو أصـل الإيمـان ، وهـو قـول وعمـل " [٢] كما قد بينت من قبل علي ما أثبت ذلك وقرره ابن تيمية في غير ما موضع .

فعـندها تتلاشـي الـذات أمـام عظمة الله تعالي وتتجه محبة النفس إلـي حـب الله فتحـب بحـبه وتـبغض بحـبها لله ما يبغضه الله تعالي . عـندها تصـبح لهـذا الحـب آثـار ودلائل وأمارات قد نالها العبد بشرف حـب الله تعالـي له ويحظـي بسـعادة الدارين ويتحقق بحب الله له فتظهر لـه هـذه المحـبة فـإن الحكم فيها أيضاً لظهور (النعم المنبئة عن رضاه) [٣] حتـي يـرى فـي الأرض مقـبولاً مهديـاً وتلقـى محبته في قلوب العباد .

روي عـن أبـي هريـرة ـ رضـي الله عـنه ـ عن النبي ﷺ ـ قـال : " إذا أحـب الله العـبد نـادي جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحببه ، فيحـبه جـبريل ، فيـنادي جـبريل في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً ، فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض "[٤]

---

[١] ابن تيمية ـ السلوك ، صـ ٦٩٨ (الجزء العاشر من الفتاوي الكبري)

[٢] ابن تيمية ـ قاعدة في المحبة ، صـ ٢٣٥ .

[٣] ابن عطية ـ المحرر الوجيز ، ٥/ ١٣٥ ، تحقيق المجلس العلمي بفاس ـ وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ المغرب .

[٤] أخرجه مالك في الموطأ (٣/ ١٢٩) والبخاري (بدء الخلق : ٦) ، (أدب : ٤١) ، (توحيد : ٣٣) ومسلم (البر : ٥٧) واحمد (٢/ ٢٦٧ ، ٣٤١ ، ٤١٣ ، ٤٨٠) (٥/ ٢٠٩ ، ٢٦٣) والترمذي (تفسير سورة مريم : ٧) .

وقد اتضحت هذه المحبة من الله تعالي لرسوله ﷺ لما في القلوب من الحب والإجلال فأنشدوا يرددون جميعاً ـ يا رسول الله (كل مصيبة بعدك تهون ـ بل كل مصيبة بعدك تهون إذا سلمت من عطب)

وقد حَسنَّ الجزع له وسلم عليه الشجر والحجر [1] ﷺ

وظهرت محبة الله تعالي أيضاً لعباده الصالحين المتقين علي مر الأزمنة .

يقول سهل ابن أبي صالح (كنا بعرفة فمر عمر بن عبد العزيز وهو علي الموسم فقام الناس ينظرون إليه ، فقلت لأبي : يا أبت إني أرى الله تبارك وتعالي يحب عمر بن عبد العزيز ، قال : وما ذاك ؟ قلت له : لما له من الحب في قلوب الناس [2] وإن محبة الله لعبادة ومحبتهم له أثر لفعل الحب الإلهي في عباده . وإن حب العبد لربه وإن كان أمراً غيبياً لا

---

(1) عن جابر بن سَمُرَه عن النبي ﷺ قال : (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث ، وإني لأعرفة الآن) (مسلم ٧/ ٥٨ ـ ٥٩) كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسايم الحجر عليه قبل النبوة) وذكره الطبري في تفسيره ٢/ ٢٤١ / ط . المعارف ـ وهو في مسند جابر بن سمره رضي الله عنه في المسند (ط ـ الحلبي) ٥/ ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، مسند الدارمي ١/ ١٢ .

وأيضاً حديث حنين الجذع ـ وطرقه صحاح منشورة .

روى البخاري في صحيحه ٥/ ١٩٥ ـ كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ـ عن ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : (كان النبي ﷺ يخطب إلي جذع .....

وسنن الترمذي (شرح ابن العربي) ١٣ / ١١١ ، كتاب المناقب ـ باب حدثنا عباد بن يعقوب الكوفي وفي المسند (ط ـ المعارف) الأرقام ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٧ ، ٢٤٠٠ ، ٢٤٠١ ، ٢٤٣٠ ، ٢٤٣٢ ، ٥٨٨٦ ، تفسير الطبري ٢/ ٢٤١ ، البداية النهاية ٦/ ١٢٥ ـ ١٣٢، فتح الباري ٦/ ٤٤٣ .

(2) مسلم : ١٦/ ١٨٤ ـ ١٨٥ ، كتاب البر والصلة ـ باب إذا احب الله عبداً .

يعلمه سوى الله عز وجل ، فإنما تدل عليه دلالة ظاهرة تتمثل في جمال العبودية له تعالي بحيث " يكون الدين كله لله " [1]

" العشق في مقام المحبة "

والسؤال الذى يطرح نفسه في هذا الأمر هو هل يصح العشق في مقام المحبة ؟إن ابن تيمية يشتد إنكاره على الصوفية وغيرهم وذلك لإطلاقهم لفظة العشق في مقام المحبة ، ويرى أن هذا اللفظ غير إسلامي ، بل هو فلسفي محض وينقل في ذلك رأي ابن جرير الطبري في كتابه المسمي (التبصير) الذي كتبه إلي أهل طبرستان في اختلاف عندهم فقال " وإن مما نعتقده : ترك إطلاق تسمية (العشق) علي الله تعالي ، وبين أن ذلك لا يجوز لاشتقاقه ولعدم ورود الشرع به ــ وقال ابن جرير فيما ينقله ابن تيمية : أدني ما فيه أنه بدعة وضلالة وفيما نص الله من ذكر المحبة كفاية " [2] ولذا فإن ابن تيمية ينكر هذا اللفظ علي الغزالي والديلمي الذي لا يري (لانكاره وجها) [3] ويسوي بين المصطلحين العشق والمحبة ، ويري أنه لا فارق بينهما إلا في الشهرة ، يقول الديلمي (هما اثنان لمعني واحد إلا أنا وجدنا اسم المحبة أشهر وأمضي فهو مجمع علي جوازه)[4] وإن كان الديلمي يتابع غيره في ذلك إلا أنه يعرف حقيقة الفرق ولكن الإمام ابن تيمية يحدد الاختلاف في هذا اللفظ بوضوح

---

[1] ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة ، صـ ٢٢٩ .

[2] ابن تيمية ــ الفتوي الحموية الكبري ،صـ ١٤٠، ضمن مجموعة (نفائس) بتحقيق وتعليق (محمد حامد الفقي) مكتبة أنصار السنة المحمدية ، بدون تاريخ ــ بدون طبعة .

[3] الديلمي ــ عطف الإلف المألوف علي اللام المعطوف ــ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ــ القاهرة ، حققه وقدم له (ج ــ ك فادية) بدون تاريخ .

[4] المرجع السابق .

حينما أعلن أن الناس في هذا متنازعون فممن أطلق هذا اللفظ في حق الله " ما روي عن عبد الواحد بن زيد [1] فيما يؤثره عن أحد أنبياء الله أنه قال : (عشقني وعشقته) وقال هؤلاء : العشق هو المحبة الكاملة التامة ، ويري ابن تيمية أنه لو قيل : إن العشق هو منتهي المحبة أو أقصاها أو نحو ذلك ، فهذا المعني حق من العبد ، فإنه يحب ربه منتهي المحبة وأقصاها والله يحب عبده [2]

أما المنكرون لإطلاق هذا اللفظ في باب المحبة فإن ابن تيمية يري أن هذا اللفظ ليس " مأثوراً عن أئمة السلف " [1] والذين أنكروه لهم من جهة اللفظ مأخذان ومن جهة المعني مأخذان :

" فأما من جهة اللغة "

الأول : أنّ هذا اللفظ ليس مأثوراً عن السلف وباب الألفاظ والصفات يتبع فيها الألفاظ الشرعية فلا نطلق إلا ما يرد به الأثر ويرون أن هذا من الإسرائيليات التي لا يجوز الاعتماد عليها في شرعنا ، فإن ثبوت مثل هذا الكلام عن الله لا يعلم إلا من جهة نبينا ﷺ وذلك غير مأثور عنه وقد قال النبي ﷺ : " إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه وإما يحدثوكم بحق فتكذبوه " [2] وهذا الوجه يقتضي الامتناع من الإطلاق إلا عند الجزم بتحريمه في جميع الشرائع .

الثاني : أن المعروف من استعمال هذا اللفظ في اللغة إنما هو في محبة جنس النكاح وهذا يقوله الضالون من الاتحادية والحلولية ومن شاكلهم

---

[1] البصري ــ صوفي وواعظ لحق الحسن البصري وغيره ــ متروك الحديث (ت ١٧٧هـ) له ترجمة في العبر ١ / ٢٧٠ ، شذرات الذهب ١ / ٢٨٧ ، ميزان الاعتدال ٢ / ٦٧٢ ، لسان الميزان ٤ / ٨٠ ، الحلية ٦ / ١٥٥ ــ١٦٥ ، الطبقات الكبري ١ / ٣٩ ــ ٤١ .

[2] ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة صـ ٢٣٩ .

، فمن زعم أن الله يحب أو يعشق وأشار إلي هذا المعني ، فهو أعظم كفراً من اليهود والنصارى [٣]

" أما الماحذان المعنويان "

الأول : فقد قيل إن العشق فساد في الحب والإرادة لأنه إفراط في الحب حتي يزيد علي القصد والواجب ، وهذا المعني ممتنع في حق الله تعالي .

الثاني : قيل إن العشق هو فساد في الإدراك والتخيل والمعرفة وهذا لا يجوز في حق الله تعالي لأنه مقدّس منزه عن نقص أو خلل وما قذفه في قلوب محبيه من أنوار معرفته ينفي هذا ، فليست محبتهم إياه من اعتقاد فاسد [٤] .

وقلب المؤمن لا يعشق مع فساد الإدراك ذلك لأن فيه صارفين يصرفانه عن العشق :

الأول : الإنابة إلي الله ، **والثاني** : الخوف منه تعالي والعشق إنما يبتلي به المشركون وذلك لنقص التوحيد في قلوبهم ، قال تعالي " كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ " [٥] فبين الحق أن امرأة العزيز لشركها ابتليت بالعشق [٦] أما يوسف

---

(١) ابن تيمية ــ قاعدة فى المحبة ص ٢٣٩ .

(٢) سنن أبي داود ٣ / ١٤٣٣ كتاب العلم ــ المسند (ط ــ الحلبي ٤ / ١٣٦ ــ البخاري ٣ / ١٨١ كتاب الشهادات ، ٦ / ٢٠ ــ٢١ كتاب التفسير ، ٩ / ١١١ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ٩ / ١٥٧ كتاب التوحيد وضعف الألباني الحديث في " ضعيف للجامع الصغير وزيادته " ٥ / ٩١ .

(٣) ابن تيمية ، قاعدة في المحبة ، صـ٢٤١.

(٤) ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة ، صـ ٢٤٢ .

(٥) سورة يوسف (٢٤)

(٦) ابن تيمية ــ العقل والنقل ، ج١٠ / ١٣٧ .

عليه السلام فلكمال توحيده نجاه الله منها " إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ " وقد تحقق يوسف عليه السلام بالعبودية لله تعالي إذ هي (غاية الذل لله ، بغاية المحبة له) [1] فاس تطاع بهذا دفع هوي زوجة العزيز وبهذا جعل تيمية من العبودية لله محبة خاصة ، بل هي أسمي أنواع المحبة ، حَيثُ تُمَثِّلُ ذروتها لما فيها من تحقيق مشهدي الألوهية والربوبية قال تعالي " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ " [2][3]

" علامات أهل المحبة "

بعد أن بينت رأي ابن تيمية في ــ لمن تكون المحبة ؟ وفيمن تتحقق أرقي صورها بقي توضيح السبيل المستقيم التي عرج عليه ابن تيمية إلي ربه جل وعلا والتي يمكن التعرف عليها من خلال رأيه في :

١- الاتباع ٢- الغيرة ٣- الجهاد - الخلة

١- " الاتباع "

فالمحبة التامة لله تعالي شرطها المتابعة بنص الآية الشريفة ، قال تعالي : " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ " وإذا كانت العبودية لله تعالي تجمع (كمال المحبة لله ، وكمال الذل له) [4] فإن هذا الذي يصبح بمثابة الخضوع لله ، والاستسلام له وحده يمنح القلب كما ــ قلنا من قبل ــ الحرية في مواجهة غير الله (فكلما

---

[1] العبودية ــ لابن تيمية ، صـ ٩ ، ٥٣ ــ توزيع ــ المكتبة القيمة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

[2] المرجع السابق ص ٩.

[3] فاتحة الكتاب (٥)

[4] ابن تيمية ــ مجموع الفتاوي الكبري ج ١٨ / ٣٢٧ .

ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية عما سواه)[1] ولهذا ينبغي التفرقة بين المحبة المقترنة بالتوحيد والخالصة لله تعالي علي متابعة رسوله ﷺ ، وبين المحبة التي تتضمن نوعاً من الشرك وليس أصحابها متابعين للرسول ، وقد قال ﷺ (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار)[2] وقد اشتمل هذا الحديث علي قواعد ثلاث ، بهن جاءت الحكمة ، ليعيش من أقامها جنة الدنيا بحلاوة الإيمان ولذته .

القاعدة الأولي

تكميل المحبة ، : بأن يكون الله ورسوله أحب إلي العبد مما سواهما ، فلا يقنع بما فطر عليه من حبهما ، فالمشركون فيهم تلك المحبة ، وإنما بالفطرة المنزلة يستكمل الفطرة التي خلق عليها ، فيكون عند (الحق بلا خلق)[3]

القاعدة الثانية

وهي تفريغ المحبة لله وحده ، فيحب المرء لا يحبه إلا لله فإذا فقد ذلك (كان الله هو المحبوب لذاته)[4] وعندئذ تكون رؤية المحبين قوية للحب الإلهي ويصبح كل منهما جاذباً للآخر نحو الحق

---

(1) ابن تيمية ــ السلوك صـ ١٩٣ ، العبودية ، صـ ٥٣ .

(2) رواه البخاري مسلم وسنن ابن ماجة .

(3) ابن تيمية ــ الفتاوي ــ ج١٠ ، صـ ٣٣٦ .

(4) ابن تيمية ــ مجموعة الرسائل الكبري ، ١/ ١٥٠ . .

، وهـذا مـا يعـرف بالتخلـية قال رسول الله ﷺ (قل أسلمت وجهي إلي الله وتخليت) [1]

قـال بعـض الحكمـاء : " مـا تلـذذ المتلذذون بشيء ألذ من ذكر الله تعالـي ومحبـته فالمحـب لله عـز وجل لا يجد مع الحب لله عز وجل لشيء لذة ولا يغفل عن ذكر الله عز وجل "[2]

وبهـذه التخلـية وهـذا الذكـر الدائم يتحقق له الفناء المجامع للبقاء إذ بالتخلـية يـتفرغ العـبد ممـا سـوى الله ، وبالتالـي يملأ القلب بالحق وهـذا هـو تحقـيق (لا إلـه إلا الله) لذا فقد تبرأ الخليل ـ كما تبرأ نبينا ـ صـلوات الله علـيهما وتسـليماته ـ مـن كـل محبوب سوى الله تعالي ـ قـال تعالـي " وَإِذْ قَـالَ إِبْرَاهِـيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ " [3]

القاعدة الثالثة

دفـع الضـد ، فـيكره العـبد (ضـد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء فـي الـنار) [4] فـبالقاعدة الأولـي جعـل العبد حوله تبعاً لما جاء به النبي ﷺ فكـان الحـب وبالثانـية لمـا احـب متحداً مع مراد الحق ، وجاءت الثالثة كي تثبـت الفـؤاد علـي مـا تحقق به من توحيد الحب للمحبوب الأعظم فحصلت لهم الخلة .

---

[1] رواه النسائي ٥/٥ / كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة .

[2] المحاسبي / القصد والرجوع إلي الله ، صـ ١٠٣ .

[3] سورة الزخرف (٢٦، ٢٧)

[4] ابن تيمية / العبودية ، صـ ٦٦ .

٢- الغيرة

الغيرة سمة من أهم سمات المحبين لله تعالي فهي سبب شدة المؤمنين علي الكفار ، كما أن المحبة مبعث الرحمة والرأفة بينهم قال تعالي " أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ " [١] وقال " أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ " [٢] ومن أجل الغيرة حرّم الحق الفواحش ما ظهر منها وما بطن قال ﷺ (تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، ومن أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه القدر من الله ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين .....) [٣] وهي نوعان :

الأول : نوع يحبه الله **الثاني : نوع يبغضه الله تعالي**

قال ﷺ (إن من الغيرة ما يحبها الله ومن الغيرة ما يكره ن فالغيرة التي يحبها الله في الريبة ، والغيرة التي يكرهها الله التي في غير ريبة) [٤] فغيرة المؤمن أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه والمقصود هنا التنبية هنا علي نوع الغيرة التي يحبها الحق تبارك وتعالي وهذا خلاف ما ظن بعض الصوفية عندما خلطوا بين الغيرة لله والغيرة علي الله ــ فعطلوا العبودية بذلك ــ وشبهوا ذلك بالمحبوب البشري وقد جاء في الرسالة عن الشلبي (ت ٣٢٠هـ) يقول (المحبة أن تغار علي المحبوب أن يحبه مثلك) [٥]

---

[١] سورة المائدة (٥٤)

[٢] سورة الفتح (٢٩)

[٣] فتح الباري ١٣/ ٣٩٩ .كتاب التوحيد .

[٤] ابن ماجة ١/ ٦٤٣ ــ ورواه احمد وابن حبان .

[٥] الرسالة القشيرية ٢/ ٦١٥ .

وقد رفض ابن تيمية هذا وقال عنه إنه (تعريف فاسد جداً) [1] وذلك لما فيها من تناقض مع المحبة الفطرية التي من شأنها حب الخير لجميع البشر لأن الحب القائم علي الغيرة المحبوبة من أهم خصائص الحب الإلهي وبها يريد المحب أن ينتشل الخلق من براثن وأوساخ المعاصي والآثام يقول ابن تيمية فشأنه (أن يحب العبد أن جميع المخلوقات يشركونه في ذلك) [2] وذلك مصداقاً لقول النبي (لا يؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه) [3]

فبالمحبة الأولي يرجو المؤمن للكافر الدخول في الإسلام كي يذوق حلاوة ما يلتذ به المؤمن من حلاوة الإيمان ، وبالمحبة الثانية يرجو المؤمن من ربه استمرار المسلم علي ما هو عليه فلا يسلبه الإيمان وحلاوته قال تعالي " رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا " [4] بل يطلب الزيادة قال تعالي " وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً " [5] .

فإذا لم تتوفر هذه الشروط في العبد ، فقد نقص إيمانه وصار من الحاسدين يقول النووي (فالشخص متي لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه صار حسوداً) [6]

يقول ابن جرير الطبري (المؤمن خير للمنافق من المنافق للمؤمن ، يرحمه المؤمن ولو يقدر المنافق من المؤمن علي مثل ما يقدر المؤمن عليه لأباد خضراءه) [1]

---

(1) ابن تيمية ــ الاستقامة ٢/ ٦٣ .

(2) المرجع السابق ، ٢/ ٦٣ .

(3) رواه الشيخان .

(4) سورة آل عمران (٨)

(5) سورة طه (١١٤)

(6) النووي ــ شرح الأربعين النووية ، صـ ٣٩ ، شركة الشمرلي ــ بدون تاريخ .

وإذا فهم ما تقدم فيمكن القول بأن هؤلاء الذين يتهمون ابن تيمية بالقسوة والغلظة والشدة وجفائه وأنه لا يعرف المحبة مخطئون في زعمهم ، ذلك لأنهم لم يفهموا معني الحب الإلهي علي حقيقته ، وكيفية الوصول إلي كيفيته تبعاً للمنهج السلفي وإنما اختلطت عليهم السبل وفرقتهم الأهواء ومن هؤلاء الذين هاجموا ابن تيمية ولم يفهموا مقاصده من واقع فكره السلفي . ويعدونه خصماً للصوفية والتصوف ــ ومــن هؤلاء جولــد تسيهر وماسينيون ــ [٢]

فالعاطفة التي يمكن أن نصف بها ابن تيمية إنما هي قوة العبودية لله تعالي والتي أوصلته إلي ربه ، فصار لا يخشي في الحق لومة لائم وتبدو تلك العاطفة الجياشة عنده من وصف أعدائه له ، فقاضي المالكية ابن مخلوف يقول واصفاً له (ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا) [٣] فها هم يصفونه بالحب من حيث لا يشعرون وقد اجتمعت فيه صفتان يحبهما الله تعالي وهاتان الصفتان من أخلاق المحبين المحبوبين قال "وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ "[٤]

وبهذا يتضح أن الدين الإسلامي هو دين الحب والود ، وذلك بعكس ما يدعيه الغالون من المستشرقين والنصارى من أن الدين الإسلامي دين حــرب وقتال .

---

[١] تفسير الطبري ــ ٧/ ١٥١ .

[٢] من الباحثين الذين يعدون ابن تيمية خصماً للصوفية والتصوف : جولد تسيهر في كتابه (الحقيقة والشريعة) ولويس ماسينيون في دائرة المعارف الإسلامية (تصوف)

[٣] ابن كثير ــ البداية والنهاية ١٤/ ٥٤، ١٩٣٢ م(بنفقة مطبعة السعادة والمطبعة السلفية ومكتبة الخانجي)

[٤] سورة آل عمران (١٣٤)

إن الأصل في الجهاد هو نص الآية الكريمة التي يقول الله تعالي فيها : " قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ "[٢] وتفسير الآية عند ابن تيمية أنها " تتضمن الوعيد الشديد لمن يفضل أهله وحاله علي الله والرسول والجهاد ، فأصبح المؤمن الحق هو الذي يجعل محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله في المرتبة الأولي"[٣] والمحبة في نظر الشيخ ليست شعوراً سلبياً ساكناً لكنها تنطوي علي حركة وفاعلية (ومعلوم أن الحب يحرك القلب ، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوب [٤] فإذا كان الحب يحرك إرادة القلب اتضح أن الجهاد ما هو إلا ثمرة الغيرة ، وبها يتحقق فالغيورون المحبون تتحرك فيهم القلوب والأيدي ، والألسنة جهاداً ومنعاً من انتهاك حرمات الله ، كما أنها تتحرك منفذة ما يحبه الله ، واجتماع ذلك هو (دليل المحبة الكاملة) [٥] فمن لم يكن

---

(١) جاءت لفظة الجهاد بمشتقاتها في القرآن الكريم (٤١) مرة وإن أول آية نزلت تشرع للمؤمنين الجهاد في سبيل الله قولـه تعـالي (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله علي نصرهم لقدير) الحج : ٣٩ .

جاء في تفسير ابن كثير ــ عن ابن عباس ومجاهد وعروة ابن الزبير وزيد ابن أسلم ومقاتل ابن حيان وقتادة وغيرهم هذه أول آية نزلت في الجهاد وقوله تعالي (وإن الله علي نصرهم لقدير) أي هو قادر علي نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته) . انظر ابن كثير ــ تفسير القرآن العظيم ــ ج٣ ، صـ ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، دار الخير ــ ط٢ ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م ــ بيروت .

(٢) سورة التوبة (٢٤)

(٣) ابن تيمية ــ السلوك / ٧٥١ .

(٤) المرجع السابق ، صـ ١٩٢ .

(٥) السابق ، صـ ٥٧ .

فيه واع إلي ذلك مات منافقاً قال صلي الله عليه وسلم (ومن لم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات علي شعبة من نفاق) [1] وروي عن أبي هريرة أنه قال (من لقي الله بغير أثر من الجهاد لقيه وفيه ثلمة) [2] فإذا كانت الحياة بغير محاب الله كانت مناقضة لكمال العبودية (فإن كل من أحب شيء دون الله لغير الله ، فإن مضرته أكثر من منفعته وعذابه أعظم من نعيمه) [3] فحب الله لذاته ترادف تماماً البحث عن السعادة في تأليهه وعبادته وحده ، وتنفيذ أوامره (لأنها قرة العيون) [4] يقول رويم البغدادي (ت ٣٠٣هـ) في مقام المحبة (من أحب لعوض نغّص العوض إليه محبوبه) [5]

وبهذا عندما يتفق العمل مع المحبة لله والجهاد في سبيله ــ يصبح حب الله لذاته معناه الدخول في طاعته والعكوف علي عبادته ، فإذا امتلأ القلب حباً له خشع لا محالة (فيتبعه خشوع الجوارح) [6] وما دامت أوامر الرب تعالي تقتضي الجهاد فسيظهر فيها المحب الحقيقي ، الذي يبذل الروح في سبيل محبوبه.

وبهذا " يتبين أن محبة الله توجب المجاهدة في سبيله قطعاً ، فإن من أحب الله وأحبه الله أحب ما يحبه الله ، وأبغض ما يبغضه الله ، ووالي من يواليه الله وعادي من يعادي الله ، لا تكون محبة قط إلا وفيها ذلك بحسب قوتها وضعفها ، فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب ومحابه ، والبعد عن مكروهاته ، ومتي كان مع المحبة نبذ ما يبغضه المحبوب فإنها تكون

---

[1] الحاكم في المستدرك ٢/ ٧٩ و مسلم ١٣ / ٥٦ ، كتاب الإمارة .

[2] المرجع السابق ٢/ ٧٩ ومسلم ١٣/ ٥٦ كتاب الإمارة .

[3] ابن القيم ، طريق الهجرتين ، ٧٣ ، ٧٠ ، مكتبة أسامة الإسلامية / القاهرة .

[4] المرجع السابق ص ٧٣.

[5] السلمي ــ طبقات الصوفية ــ صـ ١٨٤ ، تحقيق د/ أحمد الشرباصي ــ مطبعة الشعب .

[6] ابن القيم ــ الروح صـ ٢٣٢ ــ مكتبة وهبة ــ بدون تاريخ .

تامة " [1] وقد علم المؤمن أن الجهاد لابد أن يلازمه في حياته كلها وسوف يشاهد بنفسه ما يصيبه من أذي الغير وذلك لأنه لابد أن يلاقي الأذي من (جهاده في سبيل الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإقامة دين الله وإعلاء كلماته) [2] وإذا كان ابن تيمية أحد مشايخ السلف الراسخين في العلم فالحق أن المتتبع للفكر السلفي يلاحظ مبدأ الجهاد لإعلان سلطان الله تعالي ترسخ في عقول شيوخ المدرسة ونفوسهم لأنهم أخلصوا في العكوف علي التراث الإسلامي وتعمقوا فيه ودرسوه جيداً ، فجاءت عنايتهم انعكاساً لما عرفوه وتعلموه وقلما يخلو أحد مؤلفات السلفيين من ذكر الجهاد بما في ذلك كتب متصوفيهم وزهادهم ، وقد اتخذ ابن تيمية من الجهاد دليلاً حقيقياً لمحبة الله لأن الوصول إلي مرتبة الجهاد واليقين ، والتحقق بها ليس أمراً هيناً ، إلا لمن مَنَّ الله عليه ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ودخول الحقيقة الإيمانية للقلب يحصل شيئاً فشيئاً ، فإذا لم يتعرض العبد للفيض الدائم ، ويثبت ما حصل (لوجدته مرتاباً إذا شكك شك ، وإن أمر لم يأتمر) [3] ولذا فإنه لما كانت للنفس البشرية هي المخاطبة والمكلفة ، والبدن آلتها فإن ابن تيمية يذيب الأنفس المؤمنة جميعها ، ويصهرها حتي تكون كالنفس الواحدة (فكل مؤمن يمثل عضواً قائماً بها) [4] (وروحاً من أرواح النظام في خلقه) [5]

وقد توجه ابن تيمية إلي علاج النفس البشرية ، وذلك عن طريق الحب في الله والبغض في الله ، إذ الحب هو الأداة التي نستطيع بها أن نستشف ونكتشف عوامل الضعف والخلل الاجتماعي إذا أراد أن يأخذ طريقه

---

(1) ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة ، صـ ٢٧٥ ..

(2) ابن القيم ــ مدارج السالكين ، ج٢ ، صـ ٣٢١ .

(3) ابن تيمية ــ الإيمان ، صـ ٢٠٦ــ ٢٠٧ .

(4) ابن تيمية ــ الرسائل والمسائل ، ٥٩ ، ط١ ، المنار .

(5) تفسير المنار ٣/ ٢٣٦ ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م . لمحمد رشيد رضا .

إلي نفوس المسلمين ، وذلك بالوقوف مع تلك الحملات الروحية الكامنة في نصوص الوحيين ، والتي تمثل نوراً عظيماً ينير النفس ، فإن ما حدث في داخل النفس الإنسانية لا سبيل إلي المادية لأن تقف عليه ، وإنما السبيل الوحيد هو القوة الروحانية التي تدق أبواب القلب النائم وتوقظه ، وتحي الأفئدة لتسرع في سيرها وإذا (كانت الجنة ترضي منك بأداء الفرائض والنار تندفع عنك بترك المعاصي ، فالمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح) [1] لذا فإن ابن تيمية يبين أن دخول الجهاد القلب ، وثباته فيه ، والقيام بما فيه من حب تام ، لابد وأن يتحصن العبد له بسلاحين ، بهما يدرأ الشبهات ، ويدفع الريب والشهوات ، وبدونهما ينتقل العبد إلي نوع من النفاق ، وهذان السلاحان هما :-

أ- علم القلب **ب- قوة الحب**

فبهما الطمأنينة ، واستقرار الجهاد ، ولذلك فإن ابن تيمية يعلل تزعزع الناس وريبهم وعدم قدرتهم علي الجهاد بأنه ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ، ما يدرأ الريب ، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه علي الأهل والمال) [2] ولذلك فقد توعدهم الحق تعالي بقوله " قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ "[3] وقد كان في رعونات الأنفس عند الجبريين ومن تبعهم من المتصوفة أنهم قالوا (إن العارف لا ينكر منكراً لاستبصاره بسر الله في القدر) [4] وهذا القول يظهر

---

(١) ابن القيم ــ الفوائد صـ ٧٢ ــ المكتبة القيمة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٩٨٧م .

(٢) ابن تيمية ــ الإيمان ، صـ ٢٠٧ .

(٣) سورة التوبة (٢٤)

(٤) ابن القيم ــ مدارج السالكين ، ج٣ ، صـ ١٢٣ .

فساده بوضوح لأن الرسل الذين بعثهم الله كانوا جميعاً (قائمين بالإنكار علي أممهم أشد الإنكار) [١] فالجهاد إذاً هو مقصود الشريعة وهو يشمل الإنكار باليد واللسان وبالقلب كذلك وهذه الدعوة ليست مقصورة علي المسلمين فيما بينهم وإنما هي دعوة للناس جميعاً لأنهم كما يقول ابن تيمية (أمروا بكل معروف ، ونهوا عن كل منكر لكل أحد) [٢] لذا فإن ابن تيمية يعرف الجهاد بأنه (بذل الوسع ــ وهو كل ما يملك من القدرة ــ في حصول محبوب الحق ، ودفع ما يكرهه الحق ، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان تركه دليلاً علي ضعف محبته لله ورسوله في قلبه) [٣]

وابن تيمية قد وضع المؤمن في شخصية المجاهد لأن المؤمن يجب أن يتحمل الصعاب في سبيل الله ولم يكن هذا من ابن تيمية ابتداعاً منه وإنما هو معني قرآني استنبطه ابن تيمية وحاول تطبيقة قدر الطاقة ، (كما أنها لم تكن صيحة مؤقتة أملتها عليه ظروف العصر) [٤] حيث ادعي بعض المستشرقين أن مشاركته (في الحياة السياسية هــو إخفاق لــه أكثر منه نجاح) [٥]

وقد ناقض هذا المستشرق نفسه ــ أقصد لاووست ــ فقد ذهب (إلي أن ابن تيمية لم يخف ميلاً صادقاً نحو اتجاهات التصوف المعتدل ، وأنه اتجه في حرية الحقيقة إلي تصوف وحدة الوجود باعتباره زندقة) [٦] ومعلوم أن هذه المذاهب والفرق من الصوفية بكل صورها قد أثرت في الحياة العامة

---

[١] د / مصطفي حلمي ــ أعمال القلوب ، صـ ١٢٨ .

[٢] ابن تيمية ــ الاستقامة ٢/ ٢٠٨ .

[٣] ابن تيمية ــ قاعدة في المحبة ، صـ ٢٧٦ .

[٤] د/ مصطفي حلمي ــ ابن تيمية والتصوف ، صـ ٥٣ .

[٥] نظريات شيخ الإسلام في السياسة والاجتماع ــ للمستشرق (هنري لاووست) ترجمه / محمد عبد العظيم علي ــ تقديم د/ مصطفي حلمي ــ دار الأنصار ، الطبعة الأولي، ١/ ٢٦٩ .

[٦] أحمد أمين ــ ظهور الإسلام ، صـ ٢٧٧ ، ط ١٩٥٥م .

سياسية واجتماعية . وقد بين ابن تيمية أنه لكي يصل المؤمن إلي أبلغ درجات المحبة لابد له من موالاة المحبوب ، أي موافقة الله تعالي في حب ما يحب وبغض ما يبغض وتقبل الآلام والمشاق في سبيل تحقيق الأهداف ، فكما أن محبي الأموال والمناصب يلاقون من المتاعب والأضرار الكثيرة في طريقهم إلي مآربهم فإن المؤمن وهو أشد حباً لله تعالي يتقبل أنواعاً من المصاعب في سبيل إرضاء محبوبه والتي يلاقي ذروتها في الجهاد ، وقد كان الشيخ متسقاً تمام الاتساق مع مذهبه في المحبة ، ذلك لأنه لم يفرق بين السياسة والدين ، ويكفيه فخراً موقفه العظيم البطولي من التتار والذي لن ينساه له التاريخ ، كما أنه وما زال هو حامل لواء محاربة الصوفية وخرافاتهم محاربة قرآنية ولم يكن قصده مواجهتهم علي طول الطريق ولكنه كان يقصد مواجهة التأويلات الفاسدة (التي أخرجت النصوص عن معانيها الصحيحة) [1] فنراه قد خصص بعضاً من كتبه في نقدهم.

فكتابه (الاستقامة) جاء نقداً للرسالة القشيرية محللة آراء القشيري، ناقداً لقوله، موثقاً لأحاديثه، مثنياً علي ما وافق المنهج السلفي وكأنه بذلك لم يقصد الهدم وإنما عمد إلي تأصيل تلك المصطلحات قرآنياً وسنياً وإخراج الغث مع إقرار الثمين، وذلك بناء علي منهجه في النقـد المنهجي القائم علي الكتاب والسنة .

" غاية المحبة - الرؤية "

الرؤية هي تمام المحبة، وإليها يسعي المحبون يدفعهم الشوق إلي المحبوب بعد أن قطعوا العمر في لذة محبته ، فها هم تتجافي جنوبهم عن المضاجع خوفاً من فوات التتمة ، وطمعاً وشوقاً إلي نوال أعظم الهبات

---

[1] د / مصطفي حلمي / التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث ، صـ ٢٩ ، دار الدعوة ـ الإسكندرية ـ ط١ ـ بدون تاريخ .

والعطايا ــ ألا وهي الرؤية وحب اللقاء المباشر والمعاينة واللذة العظمي التي عندها تنتهي حركات العباد .

طرق ابن تيمية في الرؤية

وقد أنكر جماعة رؤية الله تعالي في الجنة منهم الجهمية الذين أنكروا المحبة من أصلها وأنكروا الخلة أيضاً رغم ثبوتهما من الكتاب والسنة وأقرها السلف ومشايخ الصوفية وكان أول من أنكر حقيقة المحبة الجعد بن درهم [1] وقتله خالد بن عبد الله القسري [2] " بواسط " يوم النحر ــ وقد أنكر الرؤية في الجنة جماعة من المتكلمين والفقهاء مثل ابن عقيل والجويني ، وقد أخطأوا في ذلك ، لأن من المتفق عليه بين سلف الأمة ومشايخ الطرق رؤية الله عز وجل في الجنة ويثبتون تنعم المؤمنين برؤية ربهم (فكلما كان الشيء أحب كانت اللذة بنيله أعظم) [3] وقد استشهد ابن تيمية بما قال الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) في موضوع الرؤيــة وصلته بالمحبة : (لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخــرة لذابت نفوسهم في الدنيــا شوقاً إليه) [4]

وقد سلك ابن تيمية طرقاً في إثباته للرؤية من الناحيتين العقلية والنقلية وذلك في مسلكين ــ كان الأول دفاعاً عن أقرب المذاهب إلي أهل السنة ، والثاني كان خاصاً به نافح فيه عن الحق لذاته .

---

(١) الجعد بن درهم أول من تكلم في خلق القرآن ــ الفرق بين الفرق ــ للبغدادي ، صـ ١٩ .

(٢) خالد : كان والياً علي العراق لهشام بن عبد الملك ، ١٠٦هـ وقد مات تحت العذاب ، قتله يوسف بن عمر الثقفي وقد قيل إن خالد قتل الجعد بدوافع سياسية ، لكنه موه باسم الدين ، إقناعاً للعامة بقتله ، انظر في ذلك (الفرق بين الفرق) صـ ٢٧٨ للبغدادي وانظر د/ سيد عبد الستار ميهوب (القرآن والنبوة عند القاضي عبد الجبار) هامش صـ ٨٨، دار الهداية ، ط٢ ، ٢٠٠٣م .

(٣) المسلوك ١٠/ ٦٩٦ .

(٤) المرجع السابق ٦٩٦ ، ٦٩٧ .

ولم يقم دفاع ابن تيمية في هذا المسلك عن الحق في ذاته ، أو أنه لم يناقش هذه المذاهب إثباتاً لأحدها دون الآخر وذلك " لأنها اعتمدت في مقدماتها علي أصول فاسدة ، لذا لم يحاول إثباتها لا شرعاً ولا عقلاً " [1] وإنما ما حمله علي ذلك أمران هما :

الأول : محاولة بيان رجحان بعض الأقوال علي بعضها ، حتي يبين للفريق المخطئ خطأه ، لعله بذلك يشتاق إلي معرفة الصواب ، فيلقي سمعه لمن هو أصح منه (وهذا هو الميزان القرآني الذي أنزله الله) [2] ويقصد به العدل .

الثاني : عدم إنكار الحق مهما كان قائله ، يقوا ابن تيمية (فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني ــ فضلاً عن الرافضي ــ قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده بل لا نرد إلا ما فيه مخالفة للحق) [3] وقد التزم ابن تيمية هذا المنهج وذلك كما يظهر في مناقشته للمخالفين لاسيما الاتحادية وخاصة ابن عربي .

وحقيقة الطريق الأول

أن مثبتي الرؤية أثبتوها لا في جهة ، وتلك مقولة نازعهم فيها النفاة من جانبيها : **الأول : الإثبات** **الثاني : القول بأنها لا في جهة**

فأما الأول : فإن النفاة يرون أن الرؤية مستحيلة عقلاً ، فالرؤية عندهم غير ممكنة بأي حال من الأحوال ، ولكن هذا لا يستقيم لهم ، ذلك لأن

---

(1) منهاج السنة ٢/ ٢٦٣ ــ تحقيق د/ محمد رشاد سالم ــ مكتبة العروبة ــ مطبعة المدني ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

(2) ابن تيمية ــ منهاج السنة ٢/ ٢٦٨ .

(3) المرجع السابق ٢/ ٢٦٣ .

من شروط الرؤية الوجود ولما كان الوجود الأكمل للحق تعالي ، فإن قول (المثبتين أقرب إلي الصواب من قول النفاة ، ثم يبين ابن تيمية خطأ المثبتين عندما قالوا : إن كل موجود يري) [1] فالموجودات منها ما يرى ومنها ما لا يرى ، وليس العدم هو الفارق بين الرؤيا وعدمها وإنما الفيصل في ذلك هو الكمال فيقول (فكل ما كان وجوده أكمل كان أحق بأن يرى وكل ما لم يمكن أن يرى فهو أضعف وجوداً مما يمكن أن يرى) [2] وأكمل موجود هو الله فهو أحق بالرؤية مما سواه ، وإذا لم نستطع رؤيته في الدنيا فذلك لعجز أبصارنا عن ذلك لا أنها ممتنعة أصلاً .

وأما شطر المقولة الثاني وهو أنه يرى لا في جهة ، فليس هناك ما يبرر رده فالنفاة أنفسهم قد اشتركوا مع المثبتين في هذا الأصل ومع هذا فقد وصفوه بأنها مكابرة للعقل ــ فالنفاة يقولون بوجود موجود لا داخل العقل ولا خارجه ولا مباين له ولا متصل به ، في حين أن المثبتين يقولون بوجود موجود فوق العالم بذاته وهو ليس بجسم ولا متميز ، والتأمل في المقولتين يجد أن الثانية أقرب إلي العقل من الأولي ، وإن كان باطلاً فبطلان الأول أولي ، ومعلوم أن النفاة لا يحكمون العقل وإنما يلجأون إلي حاكم آخر هو الوهم وهو عندهم (القوة التي تدرك معاني جزئية غير محسوسة في الأعيان المحسوسة) [3] فيحصرون وظيفته في الأمور الجزئية المحددة ، بينما الأمر هنا داخل في القضايا العامة المتعلقة بالعطف والتي لا علاقة لها بالحس أو الوهم .

---

(1) الملل والنحل ــ الشهرستاني ١/ ١٣١ ، دار المعرفة ــ بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥م ، بهامش الفصل في الملل والأهواء والنحل ــ لابن حزم .

(2) ابن سينا (الشيخ الرئيس ــ أبو علي الحسين ت ٤٢٨هـ) ــ منهاج السنة ٢/ ٢٥٥ (أحوال النفس) حققها وقدم لها ــ أحمد فؤاد الأهواني ــ طبعة عيسي البابي الحلبي ــ ط١ ، ١٩٥٢م ..

(3) منهاج السنة ، ٢/ ٢٥٨ ، درء تعارض العقل والنقل ، ٦/ ٥٤ ، ابن سينا أحوال النفس ، صـ ٦٢ .

وعلي الرغم من ذلك فإن ابن تيمية لما وجدهم علي رأيهم قائمون ـــ جعل لهم ما يقولون من أن وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه أمر يعقل في حكم الوهم ولعلهم باستخدام هذا الحكم (الوهم) يحاولون المراوغة في أحكامهم ، فقد قالوا إن الوهم الذي نفيتم به مقولتنا من حكم الوهم الباطل عندما حكّمتم الأمور غير المحسوسة في أمور محسوسة ، فيرد عليهم ابن تيمية تعليلهم هذا بجوابين :

الأول : أن قول المثبتين في دلالته أقوي من قولهم ، وإن كان في رأي النفاة من حكم الوهم الباطل ، فالأجدر بهم قبول هذا الأقوي ، ذلك لأنه كما يقول ابن تيمية (كليهما علي قولكم من حكم الوهم الباطل ، وفساد قولكم أبين في الفطر من فساد قول منازعيكم ، فإن كان قولهم مردوداً فقولكم أولي بالرد ، وإن كان قولكم مقبولاً فقولهم أولي بالقبول) [1]

الثاني : أن هؤلاء المثبتين أثبتوا أموراً محسوسة والنفاة قالوا بأمور غير محسوسة ولا يمكن الإحساس بها وهم بذلك يتابعون الفلاسفة (فإن كان هذا الحكم لا يبطل حتي يثبت الأمور التي ليست بمحسوسة لزوم الدور ، فلم يبطل هذا الحكم حتي يثبت مـــا لا يمكـــن الإحساس بـــه ، ولا يثبت ذلك حتي يبطل هذا الحكم ، فلا يثبت ذلك) [2]

---

[1] منهاج السنة ، ٢/ ٢٦٠ .

[2] المرجع السابق ، ٢/ ٢٦٠ .

الطريق الثاني

وينقسم إلي نوعين :-

الأول : عقلياً شرعياً منطقياً

الثاني : روحانياً وجدانياً ذوقياً

أما الأول : فهو عبارة عن نقد وبيان أوجه الفساد في القضية التي ادعوها والتي تقول : إنه ليس في جهة ، وكل ما ليس في جهة فهو لا يرى ، ويتساءل ابن تيمية ما المقصود بالجهة هنا ؟

إنها إما أن تكون أمراً وجودياً أو أنها عدمية ، فإذا كانت وجودية (كان التقدير كل ما ليس في شيء موجود لا يرى) [1] وهذا غير صحيح فسطح العالم يمكن رؤيته وهو ليس في عالم آخر ، وإن كان الثانية (كانت المقدمة الثانية ممنوعة) [2]

والملاحظ أن النفاة نفوا الرؤية خشية الوقوع في لوازمها ، حيث نجدهم لم يقفوا علي حقيقة المكان إلا بالمعني الأرسطي ، وأن المراد به أن يكون الشيء الفوقي محتاجاً لما تحته ، ولكن بمعرفة المعني الثاني للمكان تزول تلك الشبهة عن هذا الأمر فالمكان هو (ما يكون الشيء فوقه من غير احتياج إليه ، مثل كون السماء فوق الجو وكون الملائكة فوق الأرض والهواء) [3] وهذا المعني هو ما كان عليـــه السلف والصحابة بل وأقره النبي ﷺ [4]

---

[1] منهاج السنة ٢/ ٢٦٩ .

[2] المرجع السابق ٢/ ٢٧٦ .

[3] المرجع السابق ٢/ ٢٦٩ .

[4] الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣/ ٩٠١ .

وقد انطلق ابن تيمية في بيان النوع الثاني ، مع نظراته الروحية وتفسيراته الذوقية لمعاني الرؤية وحقيقتها سواء كان ذلك في الدنيا معرفياً أم في الآخرة حقيقة ومشاهدة عيانية ، ويبين أوقاتها ودرجاتها ومراتبها .

" *حقيقة الرؤية* "

رغم أن إشكالية رؤية الله تعالي بالإبصار يوم القيامة تعد واحدة من الإشكاليات الكبيرة في الفكر الإسلامي العقائدي والكلامي، وهذه الإشكالية أدخل إلي باب التصورات منها إلي باب التحقيقات تأسيساً علي أن فرق المتكلمين لم يتفقوا علي رأي واحد بخصوصها [1] إلا أن أهل السنة متفقون علي جواز الرؤية وعلي أن لذة النظر إلي وجه الله أعلي اللذات في الآخرة ، كما دل الكتاب والسنة وكمـــا أثبت ذلك مشايخ الصوفية وأهـــل السنة والجماعة بل عوام الأمة .

وإن رؤيته تعالي هي أعلي مراتب النعيم ، فهو غاية الطالبين ومقصد العارفين ، وهي وإن كانت متفاوتة في درجاتها تبعاً للحب والمعرفة ، فالشأن في المعاينة والمشاهدة ، والظفر بلقاء الحبيب قال تعالي " يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ " [2] وقد فسر السلف " الكدح بالسير والسلوك ، والملاقاة والمشاهدة والرؤية والمعاينة " [3] علي ما حكاه ابن تيمية وجمهور القائلين بالرؤية من السلف ومن تبعهم يقرون بأننا سنراه سبحانه وتعالي

---

(1) د / سيد عبد الستار ميهوب (الإلهيات عند ناصر الدين البيضاوي) صـ ١٥٨ ـ دار الهداية ، ط١ ، ١٩٩٤م .

(2) سورة الانشقاق (٦)

(3) الفتاوي ٦/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣ .

(عياناً مواجهة كما هو معروف بالعقل) [1] وذلك لقوله ﷺ (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر لا تضارون في رؤيته) [2]

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم) فإذا الرب تعالي أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة : قال : ذلك قول الله " سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ "[3] قال : فينظرون إليه فلا يلتفتون إلي شيء من النعيم مـا داموا ينظرون إليـه حتي يحجب عنهم ، ويبقي نوره وبركته عليهم في ديارهم [4]

دوام الرؤية

والسؤال هو : هل الرؤية دائمة ؟ لا ، ليست دائمة وإنما هي ذات أوقات يتجلي فيها الحق علي عباده فثمة رؤية ومشاهدة عامة معتادة تكون علي حسب الصلوات المعتادة ، وهناك مشاهدة خاصة وذلك في مقابل الرؤية القلبية التي تحدث للعباد في يوم الجمعة ، لما رواه أبو داود عن ابن عباس أنه قال : قال النبي ﷺ (إن أهل الجنة يرون ربهم في كل يوم جمعة في رمال الكافور) ،وأقربهم منه مجلساً أسرعهم يوم الجمعة وأبكرهم غدواً) [5] وقد وردت الأحاديث بجواز الرؤية أكثر من مرة ولكن الرؤية يوم الجمعة

---

[1] منهاج السنة ٢/ ٧٥ .

[2] حديث صحيح ـ أخرجه مسلم في صحيحه (المساجد / ٢١٣ ، ٢١٤ . رقم ٦٣٤ ، وأبو داود (٤٢٧) والنسائي (١/ ٢٣٥) .

[3] سورة يس (٥٨)

[4] الفتاوي ٦/ ٤١٧ .

[5] ابن ماجة ١/ ٦٦ ، المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ، وفي سند الحديث أبو عاصم " قال المحقق : قال السيوطي في مصباح الزجاجة ، والذي رأيته أنا في كتاب العقيلي ما نصه : عبد الله بن عبيد الله أبو عاصم العبداني منكر الحديث وكان الفضل يرى القدر يغلب علي حديثه الوهم ١/ هـ .

هي أخصها وأعظمها أثراً بل إنه قد يكون أفضل من تجلي مرات متعددة ، ويأتي الفارق من كيفية للصلاة وأوانها إذ كل (بحسب صلاته يرى) [1] والذي يفهم من هذا أن الرؤية مرتبطة بالصلاة والفارق بين الرجل والكفر ترك الصلاة ــ فهل يرى الكفار ربهم ؟ .

لقد تعددت الآراء حتي قال ابن حزم إن الكافرين (يرون الله تعالي في الآخرة بقلوبهم) [2] أما ما عليه أصحاب الإمام أحمد أن الكافرين لن يروا ربهم مطلقاً وهو ما اختاره ابن تيمية أيضاً جاعلاً عمده دليله قوله تعالي " كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ "[3] فإذا قيل إنهم يحجبون في حال دون الأخرى لم يكن هناك دليل علي ذلك ، كما أن فيه تسوية وخلط بينهم وبين المؤمنين ، فرؤية المؤمنين كما سبق لن تكون مستديمة ، والكافرون يوم القيامة سوف يكونون محجوبون عمياناً قال تعالي " وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى " [4] وقال تعالي : " وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً " [5] والعمي كما هو معلوم ينافي الرؤية ثم إن رؤية الحق تعالي هي أعلي النعم وأعظم اللذات للمؤمنين في الآخرة وهي أشد العقوبات للكافرين والمجرمين بل (اللذة والنعيم التام للمؤمنين في حظهم من الخالق سبحانه وتعالي ، كما في الدعاء المأثور : (اللهم إني أسألك لذة النظر إلي وجهك والشوق إلي لقائك في غيـــر ضـــراء مضره ولا فتنة مضلة) [6]

---

(1) الفتاوي ٦/ ٤٤٨ / ٤٥٥ / ٤٠٨ .

(2) ابن حزم ــ الفصل في الملل والأهواء والنحل ــ ٤/٣ ، ط٢، دار المعرفة ــ بيروت ، ١٩٧٥م .

(3) سورة المطففين (١٥)

(4) سورة طه (١٢٤)

(5) سورة الإسراء (٧٢)

(6) رواه النسائي وغيره ــ ابن تيمية ــ توحيد الألوهية ــ صـــ ٢٦ ، ١٩٩٢ م .

وتتعدد درجات الرؤية سواء أكانت في الدنيا أم في الأخرة فإنها مرهونة بالإيمان والحب والمعرفة وهذه المشاهدات الحاصلة متعلقة بما يسمي (المثال العلمي) القائم أصلاً علي الفطرة وقد كتب الحق هذا المثال العلمي في قلوبنا ، فارتسمت فيها ــ أي القلوب ــ الحقيقة وفقاً للخبر الصحيح . قال تعالي " كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ "[1] يقول ابن تيمية (وما في القلوب من معرفته لا يماثله شيء من المعارف ، ومحبته لا يماثلها شيء فله المثل الأعلى كما أنه في نفسه الأعلى) [2] وتتباين مقادير الخلق واستعداداتهم للتجلي والرؤية بحسب تباينهم في معرفة الأسماء والصفات ومعرفة ما ورد عن النبي ﷺ من أخبار وأيضاً تفسيرها حسب مرادها الصحيح ، فالعلم والإرادة (يكسبان العبد قوة وثباتاً في الحب والعبودية ، أكبر بكثير من العارف بالصفات دون القيام بها) [3] وقد اختلط علي بعض السالكين الأمر حتي زعموا أنهم هو (تعالي) أو أنهم اتحدوا به ولكن ابن تيمية يخرج هذا الزعم باحتمالين :-

الأول : إما أنه خطأ .

الثاني : أنه توسع في العبارة ، والمقصود أنه اتحاد في المطلوب والمحبوب والمأمور به وذلك باتحاد الشخصين كقول النبي ﷺ (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف) [4] ففي هذا

---

(1) سورة المجادلة (٢٢)

(2) الفتاوى : ٥/ ٢٥٠ .

(3) السابق : ٥/ ٢٥٣ .

(4) رواه البخاري ، ج٣ ، صـ١٢١٣ رقم ٣١٥٨ ، مسلم ، ج٤ ، صـ ٢٠٣١ رقم ٢٦٣٨ ، وابن حبان ، ومسند أحمد ، وسنن أبي داود .

تناسب وتشابه في العلم جعلها متناسقة متعارفة فيما تحب وتكره ، وكلما رقت قلوب العارفين أصبحت محلاً لكي تتجلي لها الذات الإلهية ولا يكون هذا إلا في المنام ، ويكون ذلك علي حسب إيمانه ويقينه ومراقبته لربه فإن كان في إيمانه نقص رأي ما يشبهه ، وإن كان قوياً في الإيمان واليقين رآه بحسب ذلك ، ولما كان النبي ﷺ (أتم إيماناً وأعظم يقيناً رآه في أحسن صورة) [1] وإذا كانت الرؤية قد يعتريها النقص إلا أن هناك مرتبة تمثل أسمي وأعلي درجات الرؤية وتكون في مقام الإحسان ولكن هل هي عيانية أم قلبية ؟ .

يتفق علماء السلف في هذا الأمر علي أن رؤية الحق سبحانه وتعالي ممكنة في الآخرة ، وليست مستحيلة عقلاً كما ظن ذلك بعض الفرق كالمعتزلة والجهمية الذين أنكروها من أساسها ولكن قد ثبت (بالفعل إمكان رؤيته تعالي ، وبالشرع وقوعها في الآخرة ، فاتفق الشرع والعقل علي إمكان الرؤية ووقوعها فإن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود ، وما كان أكمل وجوداً كان أحق أن يرى ، فالباري سبحانه أحق أن يرى من كل ما سواه ، لأن وجوده أكمل من كل موجود سواه) [2] ولكنها مع ذلك ــ لم تثبت لأحد ــ كما أنها لم تنسب إلا للنبي ﷺ [3] إلا أن الثابت عن النبي ﷺ أنه قال عندما سأله أبو ذر رضي الله عنه هل رأيت ربك ؟ فقال (نور أني أراه) وفي رواية أخري رأيت نوراً والحاصل من الحديث أنه لم يرى ربه بعينه ، وإنما كانت رؤية قلبية ، وأيضاً لما رواه ابن عباس من أن النبي ﷺ رأي ربه بفؤاده مرتين ، وكما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها (من زعم

---

[1] ابن تيمية ــ منهاج السنة ، ٢/ ٩٦ .

[2] ابن القيم ــ مختصر الصواعق المرسلة علي الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزيه ، تحقيق / سيد إبراهيم ، دار زمزم ــ الرياض ــ دار الحديث ــ القاهرة ، ط١ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، صـ ٤٠١

[3] ابن تيمية ــ درء تعارض العقل والنقل ٨/ ٤١ .

أن محمداً رأى ربه فقد أعظم علي الله الفرية) [1] والراجح ــ والله أعلم ــ ما قاله أبو ذر وابن عباس بالخبر الصحيح فهي مسألة لا يصلح فيها إلا الخبر الصحيح لا الظن والاجتهاد . والرؤية قد ثبتت بالشرع (ومن ادعي معارضة الوحي بعقله لم يقدر الله حق قدره وقد ذم الله سبحانه وتعالي من لم يقدر الله حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه) [2] وفي النهاية يمكن القول بأن رؤية الحق تبارك وتعالي في الدنيا ، هي رؤية روحية وتجليات إلهية ينشرها الحق لعبادة رافعاً بها عن قلوبهم الحجب علي قدر ما فيها من معرفة ومحبة وهيبة وإجلال وتوكل فيظل القلب في صعود إليه ، كما ينجذب إليه البدن ، ما دام في إحصاء صفاته وأسمائه ، ثم يدرك المحبوب ويحدث الذوق وينال الوصل .

الذوق

والذوق في اللغة يكون بالفم وأيضاً يكون بغير الفم وذلك للمعاني ، أي أنه حالة تستشعرها النفس والروح ، كقيام الطعام والشراب بالأجسام [3] وبالجملة فهو (يستعمل في كل ما يحس به ، ويجد ألمه ولذته) [4] والإحساس هنا عام سواء بالحواس أو بالباطن ، وإن كان أصله الرؤية قال تعالي (هل تحس منهم من أحد) [5] وقد ورد استعماله في القرآن بمعني الإحساس بالملائم والمنافر مما (يدل علي أنه أعم) [6] ومن الذوق بالفم ،

---

[1] راجع هذه الأحاديث في صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ٢ــ ١٥ ، كتاب الإيمان ــ باب في ذكر سدرة المنتهي .

[2] ابن القيم ــ السابق ، صـ ٤٠٢ . (مختصر الصواعق المرسلة)

[3] لسان العرب ــ مادة ذوق .

[4] ابن تيمية ــ الإيمان ، صـ ٨٤ .

[5] الفتاوي ، ١٠/ ٣٣٤ ــ ٣٣٥ ، مريم ، الآية ٩٨ .

[6] المرجع السابق ١٠ / ٣٣٤ ــ ٣٣٥.

ولكن هذا لا يعني إطلاق استخدام اللفظ (وإنما هو مقيد بما يدل عليه) [1] ولذا يعرف ابن تيمية الذوق بأنه (إدراك المحبوب) [2] وعلي قدر التجليات يكون الذوق وبه يقترب المحب من تكميل محبته التي بها يجد حلاوة في قلبه كما قال ﷺ (ثلاث من كن وجد بهن حلاوة الإيمان) [3] وقال (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً) [4] فعلق ﷺ الذوق الإيماني بتمام المحبة ، وهو الأمر الذي فيه يتفاوت الخلق بقدر تفاوتهم في (توحيد قلوبهم إلي الله ولإقبالهم عليه دون سواه) [5] والذوق درجة وسطى بين المحبة واللذة ، ولأهله درجات ثلاث بآخرها تتم العاطفة القلبية محدثة فيه نشوة ولذة بادية واضحة باللذة الكبري عند الرؤية البصرية التي تتحقق في الآخرة لصاحب هذه الدرجة .

الدرجة الأولي : ذوق علمي يحصل بإخبار الرسل .

الدرجة الثانية : ذوق مشاهدة ومعاينة لما أخبر به ، كأن يعاين الجنة والنار والثواب والعقاب ويرى أهل المواجيد والأذواق في الدنيا .

الدرجة الثالثة : ذوق المباشرة والمعاينة الحقيقية الفعلية والتي يرقص فيها القلب طرباً ، التي قال فيها بعض العارفين (لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا العيش إنهم

---

(1) الإيمان ، صـ ٨٤ ، ٨٥ .

(2) الفتاوى ، ١٠ / ٣٢٦ .

(3) الرسائل والمسائل ٢/ ١٦٢ .

(4) صحيح مسلم ـ ج١ ، صـ ٦٢ ، رقم ٣٤٢ ـ صحيح ابن حبان ، ج٤ ، صـ ٥٩٢ رقم ١٦٩٤ صـ ٢٨ .

(5) الفتاوى ١٠/ ٣٦٦ .

لفي عيش طيب) [1] ويتفاوت الناس في الذوق في الدنيا والآخرة أما في الآخرة فهم فرحون مسرورون لما أفاء الله تعالي عليهم من فضله قال تعالي " قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ " [2] وقال تعالي " وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً " [3] .

يقول ابن تيمية : (فالنضرة جمال الوجوه ، والسرور جمال القلوب) [4] فكان وصفهم بالظاهر والباطن معاً . وهم في شوق دائم إلي الرؤية فيها تحصل اللذة التامة ، وتنتهي بها حركات العباد يقول ابن تيمية : (واللذة هي الغاية من الحركات الإرادية ، فتكون الغاية من اللذات هي الغاية من الحركات) [5]

اللذة

في اللغة : هي نقيض الألم ، وهي إدراك الملائم من حيث أنه ملائم ، واللذة واللذائذ واللذيذ للأكل والشرب [6]

وفي الإصطلاح : هي ظاهرة وجدانية ، وحالة نفسية من الصعب تعريفها إلا أنها تحس ونجد أثرها في نفوسنا [7] وبهذا فهي معنوية كالحب والقرب .

---

(1) الرسائل الكبرى ٢/ ١٦٠ .

(2) سورة يونس (٥٨)

(3) سورة الإنسان ــ آية : ١١ .

(4) جامع الرسائل / ٧٠ .

(5) قاعدة المحبة ، صـ ٢٤٩ .

(6) لسان العرب ــ مادة ــ (لذّ) .

(7) المعجم الفلسفي / مجمع اللغة العربية ــ الهيئة العامة للمطابع الأميرية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

تقسيم ابن تيمية اللذة إلي أقسام

يقسمها ابن تيمية إلي أقسام ثلاثة :-

الأول : حسي : وهو مما يكون بإحساس الجسد كأنواع المأكول والمشروب .

الثاني : وهمي : وهو ما يتخيله ويتوهمه بنفسه ونفس غيره كالمدح والتعظيم له والطاعة له .

الثالث : عقلي : وهي لذة روحية متعلقة بالقلب والروح والعقل وهي ناشئة من ذكر الله ومعرفته [1] ، وهذا القسم من أعظم الأجناس فإن (لذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه ، وأعني ألمه ولذته النفسانيتان إذ به يشعر القلب بالطمأنينة ويشعر بالأنس) [2] ولكن السؤال الذي يطرح هو أي هذه اللذات له صفة الدوام والاستقرار ؟

يرى ابن تيمية أن اللذات منها محمود ، ومذموم وباطل .

فأما المحمودة فهي : (مقصد كل حي ، وتقصد لذاتها) [3] وهي النعيم الأخروي الدائم .

قال تعالي " وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ " [4] يقول ابن تيمية (فشهوة النفوس ، ولذة العيون هو النعيم الخالص ، والخلود هو الدوام والبقاء) [5] قال تعالي " فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا

---

[1] قاعدة المحبة ، صـ ٢٤٦ .

[2] الفتاوى ـ ١٠ / ١٤٠ .

[3] الاستقامة ـ ٢/ ١٥١ .

[4] الزخرف (٧١)

[5] الاستقامة ـ ٢/ ١٥٢ .

كَانُوا يَعْمَلُونَ " [1] وقال تعالي " يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ " [2] فلذات الدنيا عند ابن تيمية هي السبيل إلي لذات الآخرة وإن كانت بالطبع قليلة إذا قيست بها قال تعالي " وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ " [3] ومن هنا فإن هذه اللذات الدنيوية من حسية ووهمية وعقلية وغيرها يثاب عليها إذا ما كانت لوجهه تعالي ــ وقد اشتاقت النفوس إلي ما تلتذ بسببه لذا كانت أعظم اللذات هي لذة الرؤية إلي وجهه الكريم وسبب ذلك (أن حب الله موجود في قلب كل مؤمن) [4] فاشتاق القلب إلي الرؤية الظاهرة التي تكون عقيب النظر يقول ابن تيمية (واللذة مقرونة بالنظر ولا أحب إليهم من النظر لما يقترن به من اللذة ، لا أن نفس النظر هو اللذة) [5] بذا يتضح أن مفهوم اللذة عنده ليس مقصوراً علي الذوق وحدة ولا المحبة وحدها أو المعرفـــة فحسب ، وإنما هي (أمر ذوقي وجودي ضروري) [6] وثمرة التلازم التام بين المحبة والمعرفة والذوق فبقدر قوتها مجتمعة تكون اللذة ، وابن تيمية عندما يبين أن اللذة ليست هي لذة النظر وإنما هي ثمرة النظر ــ يبين خطأ الفلاسفة ومن سار علي دربهم فقد ظن بعضهم خطأ أن اللذة هي ، (إدراك الملائم) [7] وذلك مما دخل عليهم من الجهل والكفر حيث أن الرؤية هي تمام المحبة ولا تتم المحبة إلا بالمعرفة فالأخيرة إحساس

---

[1] سورة السجدة (١٧)

[2] سورة غافر (٣٩)

[3] الرعد (٢٦)

[4] درء تعارض العقل والنقل ، ٦/ ٧٤ .

[5] الفتاوى ، ١٠ / ٣٢٧ ، ٧/ ٥٣٧ ، الاستقامة ٢/ ١٤٩ .

[6] الاستقامة ، ٢/ ١٤٩ .

[7] ابن سينا ، رسالة أضحوية في المعاد ، طبعها وحققها د/ سليمان دنيا معد ،١٣١٨ / ١٩٤٩م صـــ ١١٢ .

ابن سينا ، النجاة ــ طبعها وحققها د/ سليمان دنيا معد ، مطبعة السعادة ، ١٣٣١هـــصـــ ٤٠١ .

وحب لذا يبين ابن تيمية أن (سبب اللذة إحساس الملائم ، وسبب الألم إحساس المنافي وليس اللذة والألم نفس الإحساس والإدراك وإنما هو ثمرته ومقصود غايته) [1] وإتماماً للفائدة فإن ابن تيمية لم يقل بدوام الرؤية واستمرارها وإنما لها أوقات خاصة معلومة ، ثم ينشغل العباد بمزاولة النعيم والذي (يتضاعف ويتزايد كما يشاء الله تعالي) [2] فإن الله تعالي يقول " فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ " [3] وهم أثناء الرؤية لا يلتفتون إلي نعيم قط وفي هذا رد علي الصوفية الذين قصروا (اللذة علي الرؤية دون نعيم الجنة) [4] كما قد نسب هذا إلي بعضهم من أمثال رابعة العدوية (ت١٨١هـ) وغيرها .

" موقف الفلاسفة من اللذة "

وقد سار الفلاسفة في طرق كثيرة من اثبات وجحد للذة ضاهوا بها أهل الكتاب من يهود ونصاري فكذبوا حقيقة ما (أخبر الله به علي ألسن رسله من وعده ووعيده فصاروا تاركين لما ينفعهم من لذات الدنيا معرضين عما خلقوا له من لذات الآخرة ، ومعتاضين عن ذلك بأخذ ما يضرهم مما يظنون أنه لذة في الدنيا ، أو موصل للذة في الدنيا وهم في ذلك " إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى " [5] وابن تيمية يغلطهم في هذا حيث اتبعوا تفكيرهم بغير هادٍ من الشرع أولوه أو حادوا عنه مقدمين العقل علي النقل وهذا سبب عظيم في تفريع كثير من البدع والضلالات حتي رفعوا بسببه ــ أي العقل ــ من ليس من المؤمنين ومن متبعي الرسل أصلاً

---

(١) الفتاوى ، ١٠ / ١٤٠ .

(٢) قاعدة في المحبة ، صـ ٢٤٩ .

(٣) سورة السجدة (١٧)

(٤) الاستقامة ٢/ ١٥٣ .

(٥) سورة النجم (٢٣)

ـ كأرسطو وأفلاطين وغيرهما ـ والمتفلسفة أصناف من الصائبة والمشركين ومن حذا حذوهم ممن (صنف في أصناف اللذات ـ كالرازي وغيره وقد جرهم الغلط في اللذات إلي الدين الفاسد في الدنيـــا بالاعتقادات الفاسدة والعبادات والزهادات الفاسدة [1] وقد كان ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) من بين الذين نفوا اللذات الحسية والوهمية وأثبتوا العقلية وجعلوها هي اللذة الحقيقية فحسب وقد كان لهذا الأثر الكبير علي المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة وكذلك علي ملاحدة الصوفية من الاتحادية والحلولية والوجودية .

وقد سلك ابن سينا مسلك اليهود في نفيهم للذات الحسية والوهمية عندما زعموا أنها لدفع الألم لا للتنعم ، وأن اللذة الحقيقية هي اللذة العقلية ، فإن النفس عنده بذلك تتبرأ من تلك الأحوال (وتتصل بكمالها منغمسة في اللذات العقلية) [2]

والواضح من تعريفه للذة أنه يخلط بين اللذة والذوق وظن أن الإدراك لها هو إدراك (الوجود المطلق بأنواعه وأحكامه) [3] بل طلب هو وأمثاله اللذة العقلية في الدنيا بما هو من هذا النمط من الأمور العقلية وتكلموا في الإلهيات بكلام حقه قليل وباطلة كثير . ونري ابن سينا في مواضع كثيرة يري أن النفس تظل في سيرها نحو مبدأها الأول (الروحانية المطلقة) والتي تتعلق بنوع من الأبدان إلي أن (تستوفي في نفسها هيئة الوجود كله فتنقلب عالماً معقولاً ، موازياً للعالم الموجود كله ، مشاهداً لما هو الحسن المطلق والخير المطلق ، والجمال المطلق ومتحد به ، ومنتعشاً بمثاله وهيئته ومنخرطاً في سلكه ، وصائراً من جوهره) [4] والوجود المطلق الذي تخيله

---

(١) ابن تيمية ـ قاعدة في المحبة صـ ٢٥٠ .

(٢) ابن سينا ـ أحوال النفس ـ ١٣٩/١٤٠ .

(٣) ابن تيمية ـ السابق صـ ٢٥٢ .

(٤) ابن سينا : أحوال النفس ، ١٣٩ ـ ١٤٠ .

ابن سينا لا يمكن تصوره إلا في الأذهان ، ومن ثم جعل النفس ليست جسماً لأنه فصل بين الماهية ، والوجود ولذا فقد أنكر معاد الأبدان ــ وهو السبب الذي من أجله كفره الغزالي وابن تيمية وعلماء أهل السنة ــ وذلك مع غيره من الأسباب الأخري .

وعلي مذهب ابن سينا في اللذة يتضح أنها لذة خيالية لا حقيقية واتفق مع من (جعلوا عالم الخيال هو أرض الحقيقة) [1] وقد وصل إلي ما وصل إليه ابن سينا متفلسفة أشباهه مثل ابن عربي ــ حيث رأي الأول ــ أن العقوبة (غير خالدة ، بل تزول وتنمحي قليلاً قليلاً حتي تزكوا النفس وتبلغ السعادة التي تخصها) [2] وإذا كان ابن سينا أستاذاً لمن بعده في هذا الباب فإنه قد سار علي سنن من سبقوه من الفلاسفة والذين استقوا آراءهم " من الصابئة وأفلاطون وجالينوس من أطباء اليونان " [3]

" موقف ابن تيمية من منكري المحبة "

بعد أن اتضح مذهب ابن تيمية في المحبة وأنه يمثل مذهب السلف عموماً وهو قد آل علي نفسه نصرة مذهب السلف حتي صارت المحبة عندهم هي النقطة الأولي التي يقترن فيها النظر بالعمل ولا (غرابة في ذلك لأن كثيراً من آيات الله عز وجل وأقوال رسوله ﷺ تحقق خفقان القلوب حباً لله عز وجل ورجاء في مغفرته وخوفاً من عذابه) [4] ولم تكن المحبة عنده تعني غير الاقتداء ، فهي ليست نزوعاً نحو الجمال فحسب ولكنها تطلب التقرب بتنفيذ أوامر الله عز وجل ، ولكن فريقاً آخر ممن ينتسب إلي الإسلام

---

(1) ابن تيمية ــ درء تعارض العقل ، ١٠ / ١٠٨ ــ ١٠٩ .

(2) السابق ، صـ ٣٧ .

(3) أبو بكر الرازي ، من كتاب اللذة ، صـ ٣٩ .

(4) د/ مصطفي حلمي (أعمال القلوب) ، صـ ٢ .

عارض ما رآه ابن تيمية في باب المحبة واتخذوا التأويل سلاحاً هاماً به انكروا المحبة بل عطلوا الصفات الإلهية بعامة وحالوا إلي المجاز اللفظي ليأولوا ألفاظ القرآن والسنة . فكان ــ المجاز ــ نبتاً في أرض التعطيل وكان ــ والحق يقال ــ نبتاً غير طيب أضر المجتمع الإسلامي في عقيدته ، وقد تنبه إلي ذلك الإمام أحمد بن حنبل فرفضه في بدايته ، ولكنه استشري من بعده فأتي بن تيميه وغيره ، فرفضوا تلك الأداة التعطيلية ــ أقصد المجاز ــ وقد أنكر ابن تيمية المجاز عند تناول الصفات الإلهية كما فعلت المعطلة وكما استغلته المعتزلة في إنكارهم الحب الإلهي . وقد استقرأ ابن تيمية لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم فلم يجد لمصطلح المجاز كقسيم للحقيقة وجوداً إلا علي ألسنة المتأخرين ــ وهو يندرج في عصرنا الحاضر تحت المباحث البلاغية ــ أما عند المتقدمين فقد خلت منه تماماً ، إذ لم يحدث هذا التقسيم من أحد من الصحابة أو التابعين أو أئمة العلم (كمالك والأوزاعي ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، أو أحـد من أئمة اللغة كسيبويه والخليل وأبي عمر) [1] وأول من عرف عنهم ذلك هو أبو عبيدة معمر بن المثني في كتابه (مجاز القرآن واستخدمه بمعناه اللغوي ، لا الفلسفي ، وعليه محمل ما تكلم به الإمام أحمد في رده علي الزنادقة والجهمية) [2] ومعني هذا أن ابن تيمية يقر نوعاً من المجاز (لكنه ليس مجازاً في الدلالة علي المراد بل من قبيل المجاز في التعبير اللغوي) [3] وقد كان يرى أن الألفاظ المطلقة لا تحمل صفة المجازية إلا بالتركيب مع لفظ آخر بطريقة معينة عندئذٍ (تصير وضعاً

---

[1] ابن تيمية ــ الإيمان ــ ٦٨ ، ٦٩ .

[2] الفتاوي ، ج١٢ / ٢٧٧ .

[3] د/ الجليند ــ ابن تيمية ومرقفه من التأويل ، صـ ٣٧١ ، ط١ ، ١٩٧٣م ــ مجمع البحوث الإسلامية .

آخر بالإضافة ، فلو استعمل بتلك الإضافة علي غيره كان مجازاً)[1] من ثم فإن تقييد الألفاظ يصبح هو الحكم في دلالة اللفظ علي الحقيقة أو المجاز .

فالحب المضاف إلي الحق تبارك وتعالي نوع والمضاف إلي البشر نوع آخر وذلك لأن إضافته إلي الحق تبارك وتعالي قد أكسبته صفة الإلهية وإضافته إلي العبد أفادت ودلت علي معني العبودية لله ، وميله التام نحوه عز وجل (فاقتران ألفاظ القرآن تدل علي اقتران معانيه ، وإعطاء كل معني حقه)[2] قال تعالي " وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي "[3] فبإضافته إليه سبحانه تخصص وتميز ، و (قطع الاشتراك بين الخالق والمخلوق)[4] ولا يصلح ما جاء في اللغة من مجاز أن يكون كله في القرآن فإن في كلام المخلوقين مبالغة ومجازفة في المدح والهجو والمراثي وغيرها وهو (الأمر الذي يصان عنه كلام الحكماء ، فضلاً عن كلام رب العالمين)[5] وليس بالقرآن غلو أو ما يستحيل علي الله تعالي فلا يعقل أن يكون به مجاز كما في الشعر مثلاً وكما قيل ــ إن أصدق الشعر أكذبه ــ فمن المستحيل أن يكون في القرآن مجاز البته وهو ما قد يتولد عنه التأويل الفاسد والتعطيل المؤدي إلي جحد الباري تعالي وصفاته وأسمائه الحسنى .

ومن أعظم ما يعقله العقلاء أنه لو جاز بالقرآن التأويل لجاز به التحريف ، فيفسر كل بحسب هواه وحسب مصطلحاته التي يحدثها ، دون النظر في أصول اللغة التي بها نزل وهذا من باب العبث بآيات الله وكتابه ، وهذا ما يراه ابن تيمية حيث يرى أن (من أعظم أسباب الغلو في فهم كلام

---

[1] ابن تيمية ــ الإيمان ، صـ ٧٧ .

[2] الفتاوى ٢٠/ ٤٦٥ ، ١٢ / ٢٧٦ ــ ٢٧٧ .

[3] سورة طه (٣٩)

[4] الفتاوى ٢٠ / ٤٤٣ .

[5] الفتاوى ٢٠ / ٤٨٣ .

الله ورسوله أن ينشأ الرجل علي اصطلاح حادث فيـرى أن يفسـر كلام الله بذلك الاصطلاح ، ويحمله علي تلك اللغة التي اعتادها) [1]

" *المجاز عند الفلاسفة* "

لقد أقام ابن تيمية منهجه (علي أساس أن القرآن يتضمن أدلة عقلية للرد علي الفلاسفة والمتكلمين نفاة الصفات والأفعال) [2] وأيضاً يجب الأخذ من مشكاة النبوة في كل ما يتعلق بالعقائد والعبادات وقواعد السلوك وذلك لأن المنهج النبوي يغني عن آراء الرجال ، فإن (العقول المؤيدة بالتوفيق تري أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق للعقل والحكمة) [3] وقد انطلق ابن تيمية من عقيدته في تناوله لقضية المجاز والتأويل القائم عليه . فأعلن أن المجاز قائم علي قاعدة الصابئة في نفي صفات الرب تعالي ذلك لأن الصابئة يصفون الحق تعالي (لا بصفة سلبية ولا بصفة إيجابية) [4] فالمجاز إذاً فكرة استقت أصولها من (منابع يهودية وصابئة وإشراكية وفلسفية) [5] ودليل ابن تيمية علي ذلك أنه (بالرجوع إلي مصادر الجهم نراه أخذ مقولته في التعطيل عن الجعد بن درهم وقد قيل إنه أخذها عن أبان بن سمعان وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم . وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ) [6] وبالرجوع إلي موطن الجعد يتبين كما أثبت ابن تيمية أنه من حران والمعروف أن حران هذه كانت موطناً لخلق كثير من الصابئة والفلاسفة

---

(1) الفتاوى ١٢ / ١٠٦ ــ ١٠٧ .

(2) ابن القيم ــ اجتماع الجيوش الإسلامية ، صـ ٣٤ ــ ٣٥ .

(3) ابن القيم : الفوائد ، صـ ١٠١.

(4) الفتاوى ، ج١٢ / ٣٥١ .

(5) ابن تيمية ــ الفتوى الحموية ، صـ ٩٩ .

(6) المرجع السابق ، صـ ٩٨ .

بقايا دين أهل نمرود والكنعانيين الذين صنف بعض المتأخرين في سحرهم ، ومن المعروف أيضاً أن ابن تيمية حراني الموطن وله خبرة وعلم بأهلها .

ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب سبحانه : أنه (ليس له علم صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منهما) [١] والجعد له مصادر متعددة أربعة في مقولته هذه قد أخذها عنهم وترجع إليهم أسانيده في النفي والتعطيل وهي (اليهود والصابئة والمشركين والفلاسفة الضالون) [٢] وقد نقل ابن حزم مقوله للجعد ابن درهم فيه نفي صريح لاسم من أسماء الله تعالي وهو الخالق كان مقصده من ورائه التعطيل المحض للأسماء الإلهية فضلاً عن الصفات حيث يقول (إذا كان الجماع يتولد منه الولد ، فأنا الصانع ولدي ومدبره وفاعله ، لا فاعل له غيري ، وإنما يقال إن الله خلق مجازاً لا حقيقة) [٣] وهذا النص يكشف لنا في الحقيقة أن (المجاز) نشأ أول الأمر بين المتكلمين وهذا ما يقوى رأي ابن تيمية في إرجاعه المجاز في أصله إلي المعتزلة حيث قال إن (اصطلاح المجاز حادث والغالب أنه من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين) [٤] وقد كان الجاحظ (ت ٢٩٥هـ) أول من حرف مصطلح المجاز من مفهومه لدي اللغويين القدامي وقد كان ابن قتيبة تلميذ الجاحظ يرفض رأيه ويتابع اللغويين المتقدمين وأهل الحديث والسنة ويرى(أن القرآن في المصحف حقيقة لا مجاز) [٥]

والخلاف في حقيقته خلاف لفظي بعيد عن الحقيقة وقد كان ابن تيمية يدرك (بثاقب نظره أن العلة تكمن في جهل المسلمين بتراثهم ، والتجائهم

---

(١) ابن تيمية ، الفتوى الحموية صـ ٩٩ .

(٢) المرج السابق .

(٣) ابن حزم ـ الفصل ٤/ ٢٠٢ .

(٤) ابن تيمية ـ الإيمان ، صـ ٦٩ .

(٥) الفتاوى ، ج١٢ / ٣٨٨ .

إلي ما هو بعيد عن الروح الإسلامية) [1] فأخذوا يجعلون ما ليس بمجاز مجازاً وهذا (يفهم ويوهم المعاني الفاسدة من نفي ما أثبته الله لنفسه كالحب والرحمة ، فكان ذلك تمهيداً للملاحدة وأهل البدع أن يلحدوا في أسمائه وآياته) [2] والقول الجامع في جميع هذا الباب : (أن يوصف الله تعالي بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ، وما وصفه به السابقون الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث) [3]

" موقف ابن تيمية من الجهمية والمعتزلة في باب المحبة "

وامتداداً للقول حول المجاز والحقيقة ، وما تفرع عن التأويل في الآيات فقد ظهرت فرق مختلفة متباينة النظر حول المحبة .

ولقد تعددت الأقوال في المحبة إلي ثلاثة :-

الأول : هو قول الجهمية وقد كان الجهم لا يصف الله سبحانه وتعالي بأنه شيء وحي ، وقال : لا أصفه بوصف يجوز إطلاقه علي الحوادث .

وبذلك نفي الرؤية لله سبحانه وتعالي يوم القيامة وزعم أن الله لا يُحِب ولا يُحَب وقد نفي كل صفة وصف الله تعالي بها نفسه ، ولم يثبت منها شيئاً لا الإرادية ولا غيرها ، فإذا قيل إن الله تعالي يحب الطاعة ويبغض المعصية كان ذلك عنده ــ أي الجهم ــ بمعني الثواب والعقاب ، وكذلك محبة العبد لله هي محبة طاعته ، والتقرب إليه وليست محبته لذاته سبحانه ، فأنكروا بذلك محبة الذات الإلهية التي هي الغاية والمقصود من الطاعة وقد

---

[1] د/ مصطفي حلمي ــ أعمال القلوب ، صـ ٨٩ .

[2] الفتاوى ، ج٢٠ / ٤٥٨ .

[3] الفتوى الحموية للكبرى ، صـ ١٠١ .

تابع فيه الجهم أستاذه (الجعد بن درهم) الذي قتله خالد بن عبد الله القسري "بواسط" يوم النحر وقد قام مسلم بن أحوز أمير خراسان بقتل الجهم كذلك .

ويقول ابن تيمية في هذا (وهذا جهل عظيم) ، فإن محبة المتقَرِّب إلي المُتَقَرَّب إليه تابع لمحبته وفرع عليه ، فمن لا يحبّ الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه إذ التقرب وسيلة ، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود ، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلي الشيء المحبوب هي المحبوب دون المقصود بالوسيلة ، فمن لا يحب الله لا يحب طاعته وعبادته)

الثاني :

هو قول المعتزلة وكان امتداداً للقول الأول ، ولكنه لم ينكر الصفات الإرادية بل أثبتها ثم أرجع إليها سائر الصفات من الرضا والمحبة والسخط والولاية . وتكاد تتفق أقوالهم عن المحبة في نقاط ثلاث :

١- المحبة هي الإرادة . **٢- هي الطاعة .**

٣- الرضا هو الإرادة .

والذي حدانا إلي هذا هو ما وجدناه في نصوص المعتزلة أنفسهم

فالقاضي عبد الجبار (ت ٤٥٠ هـ) لا يفرق بين المحبة والإرادة فيقول (ولا يصح أن يقال إن المحبة غير الإرادة) [1] وكأنه يرى أن ما أراده الله فقد أحبه .

ويذهب الزمخشري (ت ٥٢٦ هـ) في تفسيره إلي أن محبة العباد لربهم تعني إرادتهم الطاعة فيقول (محبة العباد لله مجاز عن إرادة نفوسهم واختصاصه بالعبادة دون غيره وأنها طاعته ، وفعل ما يحبه ، وأن محبة الله

---

[1] القاضي عبد الجبار (ت ٤٥٠ هـ) ، المغني ٦/ ٥٤ ، تحقيق د/ أحمد فؤاد الأهواني ، مراجعة د/ إبراهيم مدكور وإشراف طه حسين ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

هي إثابته علي طاعتهم) [1] ويقول النجري (ت ٨٧٧هـ) (الرضي والسخط ، والولاية ، والمحبة ، بمعني الإرادة ، فإذا قيل رضى الله عن فلان أو والاه أو أحبه فمعناه أراد نفعه) [2]

ولكن ما موقف ابن تيمية من ذلك ؟

أولاً : هل المحبة هي الإرادة ؟

لم يفرق المعتزلة بين معني اللفظين ولم يعلموا أن الاشتراك بينهما لفظي وحسب إذاً لأراحهم هذا من صرف الألفاظ عن معانيها الحقيقية ولعلموا أن المحبة وغيرها من الصفات إنما هي صفات كمال لا صفات نقص إذ المحبة أصل الإرادة والإرادة دائماً مستلزمة بالمحبة ، فالشيء لا يراد إلا (لأنه محبوب أو لأنه وسيلة إلي المحبوب ولو قدر عدم المحبة لامتنعت الإرادة ، فإن المحبة لازمة الإرادة) [3] ويرى ابن تيمية أن المعتزلة (لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو لائق بالمخلوق) [4] فقصروا بذلك الصفة علي الخلق وقالوا تلحق المخلوقين والحق منزه عن ذلك ، وهم بهذا القول قد شبهوا أسماء الحق بمفهوم أسماء الخلق ، ثم نفوا ذلك ، (فجمعوا بين التعطيل والتمثيل) [5] والحقيقة أن العبد لا يشترك مع الحق في صفة إلا في الاسم وإنه عندما نفوا المحبة عنه تعالي وأنه يُحِب ويُحَب قد

---

(١) الزمخشري : تفسير الكشاف ، ١/ ١٨٤ ، ٣٤٦ ، ط١ ، المكتبة التجارية الكبري ، ١٣٥٤هـ .

(٢) النجري ــ عبد الله بن محمد بن أبي القاسم (شرح القلائد في تصحيح العقائد ، صـ ٦٩ ، مخطوط مصور ــ مكتبة ــ محمد بن إسماعيل المنصور بصنعاء (مكتبة خاصة) والمؤلف هو أحد أعلام الفكر الاعتزالي باليمن وله العديد من المؤلفات في علم الكلام ــ راجع (مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن) لعبد الله محمد الحبيشي ــ نشر مركز الدراسات اليمنية ــ صنعاء ــ بدون تاريخ .

(٣) ابن تيمية ــ منهاج السنة ، ج٣ / ١٠٠ .

(٤) ابن تيمية ــ الفتوي الحموية الكبري ، صـ ٣٢ .

(٥) المرجع السابق ، صـ ٣٢ .

أثبتوا له الإرادة وأنه مريد حقيقة ، وهي في حق العبد ميل إلي النافع أو الضار ، والحق منزه عن ذلك ، أي أنهم بفعلهم هذا قد صرفوا (النص عن المعني الذي هو مقتضاه إلي معني آخر فلزمهم نفس المعني الذي فروا منه فيما أثبتوه) [1] والمحبوب المراد قد يكون موجوداً بدون الإرادة فإرجاع المعتزلة المحبة إلي الإرادة هو إرجاع الأصل إلي الفرع ، ولعل هذا سبب في اضطرابهم في فهم الحكمة من الخلق وأن ذلك واقع تحت المراد المحبوب له .

ومن الواضح عند المعتزلة أنهم اعتمدوا في الاستدلال لعقائدهم علي القضايا العقلية ، وكان من آثار اعتمادهم علي العقل في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد أنهم كانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها عقلاً ، والظاهر من (مجموع تفكيرهم وآرائهم ، ومناهجهم أنهم أخذوا من الفلسفة التي راجت سوقها في العصر العباسي ، ولهذا كان كل عالم من العلماء ينحو في تفكيره منحي فلسفياً لا يجد من بين الفرق من يأوي إليه إلا هؤلاء المعتزلة) [2]

ثانياً : هل المحبة هي الطاعة ؟

لقد ترتب علي ما سبق جعلهم المحبة نوعاً من الإرادة والإرادة لا تعلق لها بالجائزات ، ولذا لا تتعلق بالذات الإلهية معللين ذلك بأنه لا توجد هناك نسبة بين القديم والمحدث توجب ذلك . فأولوا المحبة بأنها محبة التقرب والطاعة . والحقيقة أن محبة التقرب والطاعة ، فرع من محبة المحبوب ، والطاعة وسيلة لمحبته ، (فلا يعقل أن تكون الوسيلة هي

---

[1] الفتاوى الكبري ج٣/ ٢٦ .

[2] الإمام أبو زهرة (ابن تيمية) صـ ١٥٤ .

المحبوب دون القصد بالوسيلة لأن هذا يجر إلي الدور والتسلسل ، فلا يستطيع المحب أن يصل إلي محبوبه) [1]

وهم إذ جعلوا الحب هو الطاعة يكونون قد أدرجوها تحت (جنس محبة سائر المشتهيات) [2]

ومما يدحض كون المحبة هي الطاعة . أن النبي ﷺ عندما نبه إلي اللذة التي يجنيها المؤمن في حديثه (ثلاث من كن فيه ، وجد بهن حلاوة الإيمان) [3] قد أفصح عما يحصل في الفؤاد من ذوق الحلاوة الإيمانية وأن هذا الذوق لم يكن مترتباً علي الطاعة نفسها ولكن مبدأه كان المعرفة بالحق المحبوب لذاته فإن النفس يحركها الحب وشدة الطلب ، والحب حركتها الطبيعية ومن أحب شيئاً وجد فيه لذة ونشوة ، وكلما كانت الغاية أعظم كانت اللذة أعظم والله تعالي أكمل الكمالات لذا فإن الحب بذلك المنبعث عن المعرفة به تعالي يكون أشد من أي حب آخر وهو ما يبعثهم علي الطاعة وبذا فإن مستقر المحبة القلب (فإذا خلا عن الحب مطلقاً تعطلت النفس عن حركتها ، وثقلت وكسلت وفارقها خفة النشاط ، ولهذا نجد الكسالي أكثر الناس هماً وغماً وحزناً ليس لهم فرح ولا سرور ، بخلاف أرباب النشاط في عمل هم عالمون بحسن عواقبه ، وحلاوة غايته ، كان التذاذهم بحبه ونشاطهم أقوي) [4] والحب هو أصل الحركات والسكنات فإنه ما دام في القلب فهو يحركه بحركته الطبيعية وقد جاء رجل إلي الرسول ﷺ فسأله عن

---

(1) الفتاوى الكبرى ، ج١٠/ ٦٩ .

(2) المرجع السابق ،ج ٦/ ٤٧٧ .

(3) سبق تخريج الحديث .

(4) ابن القيم ــ روضة المحبين صـ ١٦٧ ، دار الوعي ــ حلب ، ١٣٩٧هـ .

الساعة [1] ــ فقال النبي ﷺ : (وما أعددت لها) قال : (ما أعددت لها كبير عمل ، ولكني أعددت لها حب الله ورسوله ، فقال ﷺ : أنت مع من أحببت . وصدق ابن تيمية عندما قال (إن في الدنيا جنة لن يدخل جنة الآخرة من لم يدخلها) ويعني بذلك خلجات القلب المغتبط بالإيمان .

" المحبة والرضا والإرادة "

لقد أخطأ المعتزلة حين سووا بين الرضا والإرادة ، وهذا ما حملهم علي القول بأنه تعالي يرضى القبائح ، لأنه في زعمهم ــ لو أراد القبائح لصح أن يحبها ويرضى بها ويختارها) [2] ولذا لزمهم القول بأنه يقع في ملكة ما لا يريد يقول القاضي عبد الجبار (إن الرضا بالفعل هو الإرادة) [3] ويقول (ولا يجوز أن يريد شيئاً من القبائح) ومعني هذا أن كفر الكافر عندهم لا مراد ولا مرضى وهذا تعطيل . أما عند أهل السنة فإنه مراد لا مرضى وهذا نجد ابن تيمية يأتي بالأدلة علي خطأ هذا الرأي الذي ادعته الجهمية والمعتزلة فيشرح حديثاً عن النبي ﷺ .

(عن جويرية أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ أنه لما خرج رسول الله ﷺ من عندها ثم رجع فوجدها تسبح بحصى ، فقال لها : (ما زلت منذ اليوم ؟ فقالت نعم ، قال النبي ﷺ ، لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلتيهن منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله مداد كلماته)

ويرد ابن تيمية عليهم من خلال شرحه لهذا الحديث بأمرين :

---

[1] البخاري ج١ ، صـ ٢٧ رقم (٥٠) ومسلم ج١ ، صـ ٢٩، وصحيح ابن حبان ــ كتاب الإيمان ١/ ٤٧١ .

[2] القاضى عبد الجبار (المغنى) تحقيق أحمد فؤاد الأهوانى ج٦ ــ ص ٢٣٧ .

[3] السابق ٦ / ٢٣٧ .

أولاً : قوله ﷺ :- سبحان الله عدد خلقه ، وقوله سبحان الله رضا نفسه ، قد فرق بين الرضا والإرادة ، وأنهما متباينان ، وذلك لأن الخلق هو مراده (فلو كان رضاه هو إرادته لكان مراده موجوداً ، فإن مراده قد وجد قبل هذا الكلام فإنه ما شاء الله كان ، وهذا الكلام يقتضي أن رضى نفسه أعظم من ذلك ومن ذلك أنه جمع بين رضا نفسه ومداد كلماته ، فأثبت له الرضا والكلام ، والرضا مستلزم الإرادة ، وإن لم يكن هو عين الإرادة ، ففيه إثبات كلامه ورضاه الذي يتضمن محبته ومشيئته) [1]

ثانياً : أن في هذا الحديث إثبات نفسه سبحانه وتعالي لقوله ﷺ (سبحان الله رضا نفسه) وفي ذلك قال تعالي " تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ "[2] وإذا تأملنا في حقيقة أقوال المنكرين لمحبة العبد لله نجدهم ينكرون الألوهية ، كما أن إنكارهم حب الحق تعالي لعباده يحمل إنكاراً للربوبية ، فصار هذا الإنكار كما يقول ابن تيمية مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين ، ولكونه إله العالمين وهذا قول (أهل التعطيل والجحود) [3] وقد اخطأ هؤلاء في تأويل قوله تعالي " الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ " [4] فرأوا أن الأعمال القبيحة والأعمال الشريرة لا تندرج تحت هذا الخلق ، فقالوا إنها ليست من خلق الله ، لذا قالوا لا يقع في ملكه ما لا يريد متأولين الإرادة بالرضا وهذا خطأ كما بينت من قبل .

---

[1] ابن تيمية ــ الاستقامة ١/ ٢١٤ – ٢١٥ .

[2] سورة المائدة (١١٦)

[3] ابن تيمية ــ الفتاوي الكبري ١٠/ ٧٣ .

[4] سورة السجدة (٧)

ويفصل ابن تيمية في رده عليهم في غير ما موضع من كتبه بأن سبب خطأهم عدم التفريق بين إرادتين الإرادة الدينية الشرعية والإرادة الكونية ، فإن الإرادة الشرعية متعلقة بألوهيته تعالي والتحقيق (بالأمر والنهي والمحبة والخوف والرجاء يكون عن كشف علم الإلهية) [١]

والدلائل من الكتاب كثيرة منه قوله تعالي " يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ "[٢]وقوله تعالي " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ "[٣] وقوله تعالي " يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيم * يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً "[٤] وهي ملازمة للأمر كما أنها لكي يقع الفعل المراد الرضا فلابد من تعلقها بالإرادة الكونية .

ثانياً : الإرادة الكونية

وفي قوله تعالي " وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ " [٥] إشارة إلي ما اقتضته الربوبية من التوكل والتفويض والتسليم ، لأن الرب ــ سبحانه وتعالي ــ هو المالك وفيه أيضاً معني الربوبية والإصلاح وهو علم التدبير الساري في الأكوان ، كما قال عز وجل : " إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ "[٦]

---

(١) ابن تيمية ــ توحيد الألوهية صـ ٨٩ ، طبعة ١٩٩٢م .

(٢) سورة البقرة (١٨٥)

(٣) سورة الفاتحة (٥)

(٤) سورة النساء (٢٦: ٢٨)

(٥) سورة الفاتحة (٥)

(٦) سورة النحل (٤٠)

يقول ابن تيمية (فإذا تحقق العبد لهذا المشهد ، ووفقه تعالي لذلك ، بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه في عبوديته) [1]

وابن تيمية يبين أن الأهواء قد تغلب المرء في معرفة الجمع بين المشهدين فيحكم المرء مراده وفكره وهواه علي غير ما اقتضته الإرادة الإلهية فيبين أن (من جمع بين المشهدين : الأمر الشرعي ، ومشهد الأمر الكوني الإرادي ، وقد زلت في هذا المشهد أقدام كثيرة من السالكين ، لقلة معرفتهم بما بعث الله به المرسلين وذلك لأنهم عبدوا الله علي مرادهم منه ، ففنوا بمرادهم عن مراد الحق ــ عز وجل ــ منهم ، لأن الحق يغني بمراده ومحبوبه ، ولو عبدوا الله علي مراده منهم لم ينالهم شيء من ذلك) [2] والتفريق بين الإرادتين يعلم منه فساد دعواهم فإن الإرادة الكونية يشترك فيها كل أحد من مؤمن وكافر وأما الإرادة الشرعية فهي الفاصل بينهما ، وبها تقاس قوة الإيمان لدي من آمنوا وهي التي يرضاها الله ويحبها بخلاف الأخري . والله تعالي لم يأمر الخلق بكل مقضي حسن وقبيح ، خير أو شر ، وإنما أمرنا أن نأتي أمره الديني الشرعي قال تعالي " وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ " [3] قال ابن تيمية (فلو كان يرضى كل شيء لما كان له خصيصه . [4]

---

[1] ابن تيمية ــ توحيد الألوهية ، صـ ٩٠ ، طبعة ١٩٩٢م .

[2] ابن تيمية ، السابق ، صـ ٩٠ .

[3] سورة التوبة (٥٩)

[4] ابن تيمية ــ مجموعة الرسائل الكبري ، ٢/ ٨٠ .

لقد جاء الإمام الأشعري (ت ٣٢٤هـ) الذي استخدم المنهج الكلامي في الدفاع عن العقائد السلفية في مواجهة المعتزلة وأعلن ألا مفر من سلوك الطريق الصحيح : طريق السلف وهذا ما دفع ابن تيمية إلي التلطف به والرقة معه عند النقد . وإنما ذلك (بسبب أقوال الأشعري المؤيدة لمذهب أهل الحديث والسنة) [١] وقد كان ابن تيمية يرى ضرورة أن يعرف لهذا الإمام قدره وحقه عملاً بقول الله تعالي (قد جعل الله لكل شيء قدرا) (٦٥ :٣) وذلك لأن (قيامه بنصرة مذهب أهـل السنة في وجه أهل البدع وقهره للمخالفين يضعه في مرتبة المجاهدين) [٢]

مذهب الأشعري في الإرادة والمحبة

لقد تطور الأشعري فكرياً وسجل ذلك في كتبه ، لذا فإن له مذهبين في المحبة . يتضح الأول من خلال ما أورده في كتابه الموجز وهو ما قاله ابن تيمية وما قال به تلامذته .

المذهب الأول :

وفي هذا المذهب نجده يسير علي الأصل الجهمي أي أنه يسوي بين المحبة والإرادة فيؤل المحبة لله بمحبة طاعته ومحبة الله لعبده بإثابته لهم علي طاعتهم وهذا ما ذكره عنه أبو المعالي الجويني (ت ٤٧٨ هـ) وقد ذكر أن الأشعري هو أول من سوى بين المحبة والإرادة وينقل مثل هذا البيهقي في كتابه الأسماء والصفات . وقد نقل ابن تيمية من الموجز للأشعري نصاً يبين فيه أن الأشعري يقول (بأن الله يحب المعاصي

---

[١] د/ مصطفي حلمي ــ ابن تيمية والتصوف ، صـ ١٨ .

[٢] ابن تيمية ــ نقض المنطق ، صـ ١١ .

ويرضاها كما أرادها ناقلاً ذلك ـ أي ابن تيمية ـ عن جماعة يشك في بعضهم .[1]

المذهب الثاني :

وقد عبّر الأشعري عن مذهبه هذا في أواخر كتبه فقد حرص علي إلقاء الضوء علي المذهب الصحيح لديه، فنلحظ فيها التفريق الواضح بين الأمر والإرادة والمشيئة والمحبة ، وهذا ما يبدو في كتابه (اللمع) بوضوح فقد بيّن فيه أن وقوع الأفعال وإيجادها دون الأمر بها ليس ضعفاً وإنما الضعف يكون إذا وجدت وهو لا يريدها فيقول (فكذلك كون لم يأمر به من غيره لا يوجب ضعفاً ، وفي كون ما لم يرد من غيره ما يدل علي الضعف ، وأيضاً فإن ما لم يأمر به ونهي عنه أراد وقوعه ، كذلك لم يلحقه الضعف)[2]

فالأمر هنا هو ما أحبه الله وأراد وقوعه ، والفعل المبغوض هو ما نهي الله عنه ولكنه أراد وقوعه ، وهذا عين ما قاله ابن تيمية وأوضحه في كتبه [3] .

---

(1) ابن تيمية ـ شذرات البلاتين ، ١/ ٢٤٤ ، تحقيق / محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

(2) الأشعري ـ (أبو الحسن علي بن إسماعيل) (اللمع في الرد علي أهل الزيغ والبدع ـ تحقيق الأب مكارثي ـ صـ ٥٩ ، طبعة بيروت ، ١٩٥٣م

(3) انظر في ذلك ابن تيمية ـ منهاج السنة ٣/ ١٠٢ .